



قسم الدراسات الإسلامية

علوم القرآن

جمع وإعداد

الدكتور / محمد علي قديل

أستاذ الدراسات الإسلامية المساعد - بكلية الآداب جامعة أسيوط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، له الحمد في الأولى والآخرة وهو الحكيم الخبير ، والصلاحة والسلام على البشير النذير ، سيدنا محمد المنزل عليه الوحي من رب العالمين ،
وبعد :

فإن الدراسات الإسلامية مجال مهم للتحقيق ونشروعي لكل المسلمين ؛ ذلك لأنه يهتم بدراسة كل ما بهم المسلم من نواحٍ مختلفة ، دراسة متخصصة ، وبعد دارساً مؤهلاً لتأدية رسالة شريفة تجاه دينه ، وتجاه أمته بوجه خاص ، وتجاه الإنسانية ، وأصحاب الديانات الأخرى بوجه عام .

فالشرف كل الشرف للمتخصص في هذا الحقل ؛ ذلك لكونه يقضي وقته بين دراسة القرآن والحديث والفقه ، تلك العلوم الدينية الشريفة ، التي لها مكانة عالية عند الله ، وعند الناس . ولا غرو في ذلك لما في دراسة القرآن من فضل عظيم ، ولما في حفظه من مكانة كريمة . رُوي عن ابن مسعود قال: " مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَعَلَيْهِ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّ فِيهِ خَبَرَ الْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ " وَرَوَاهُ شُعْبَهُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، وَقَالَ فِيهِ: " فَلَيَسْوِرُ الْقُرْآنَ، فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ".
٢

" ولما في تلاوته من أجر فائق ، وحسنات كثيرة . قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدِبَةُ اللَّهِ فَتَعَلَّمُوا مَأْدِبَةَ اللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَبْلُ اللَّهِ

^١) يشور : أبي بشر انظر لسان العرب لابن منظور طبعة دار المعارف ١ / ٥٢١ .

^٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٣ / ٣٤٧ .

وَهُوَ النُّورُ الْمُبِينُ ، وَالشَّفَاءُ النَّافِعُ ، عِصْمَةً لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ وَجَاهَةً لِمَنْ تَعَاهَدَ ، لَا يُعَوِّجُ فَيَقُومُ ، وَلَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبُ ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ ، وَلَا يَخْلُقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ ، اتْلُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْجُرُكُمْ عَلَى تِلَاوَتِهِ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ ، أَمَّا إِنِّي لَا أَقُولُ :
 ١ "الم" حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلْفٌ عَشْرًا ، وَلَامٌ عَشْرًا ، وَمِيمٌ عَشْرًا .

زد على ذلك الفضل الواسع الذي يصل إليه طالب العلم والعلماء في ذلك التخصص ، يقول المصطفى - صلى الله عليه وسلم - : " مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ . وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ . وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَعْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحَيَاةِ فِي حَوْفِ الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَبَّهُ الْأَنْبِيَاءَ ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخْذَهُ أَخْذَ بِحَظْلٍ وَافِرٍ .
 ٢ »

كما أن المعرفة بعلوم القرآن تعطينا صورة متكاملة عن القرآن الكريم، من حيث نزوله، وتفسيره، وجمعه، وكتابته، وعندما تكتمل في أذهاننا هذه الصورة تزداد قداسة القرآن الكريم في نفوسنا، وتزداد معرفتنا بهدياته، وبآدابه، وبأحكامه، وبتشريعاته، كما أن معرفتنا بعلوم القرآن الكريم تجعلنا نستطيع أن نرد على الشبهات الباطلة التي أثارها الكارهون والجاهلون والحاقدون حول القرآن الكريم، وتجعلنا نعرف ما الشروط التي يجب أن تتتوفر فيمن يتعرض لتفسير القرآن الكريم، وفيمن يتعرض للحديث عن أوامره ونواهيه.

^١) اتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة لأحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري ٦/٣٢٨ .

^٢) أخرجه أبو داود في سننه ج ٣ / ٣٥٤ . قال الألباني : صحيح .

كذلك تجعلنا ندرك مدى الجهد الفائق الذي بذله العلماء لخدمة القرآن الكريم، إذ أن منهم من كتب في تفسيره، ومنهم من كتب في ناسخه ومنسوخه، ومنهم كتب في إعجازه، ومنهم من كتب في قراءاته، ومنهم من كتب في غير ذلك، من الموضوعات الخاصة بخدمة القرآن الكريم.

لذلك أهيب بكم طلاب وطالبات الدراسات الإسلامية التزام ميثاق ذلك الشرف الذي خصنا الله به جميعا ، وعليينا أن نتعاهد على الجد والمثابرة وتحصيل العلم ؛ لوجه الله عز وجل ، وطلبا لمرضاته لا لسبب آخر ، وفقكم الله وسدد خطاكم . وأقدم لكم هنا بعض البحوث من علوم القرآن الكريم ، وهي مباحث مختصرة راعت فيها أنها تقدم للطالب المبتدئ ، وعنونتها "علوم القرآن ١" ليقف الطالب على البدايات المهمة لعلوم القرآن الكريم التي لابد أن يقف عليها. وجاءت هذه البحوث في مقدمة ، ومدخل ، وثلاثة فصول ، وخاتمة ، ثم قائمة المصادر والراجع والفهرس ، كالتالي :

المقدمة : بها نبذة عن العلوم الإسلامية وأهميتها وشرف ذلك العلم لطالبه ولعالمه . وذكر فصول ومباحث الكتاب .

المدخل : يتحدث عن التعريف بعلم علوم القرآن الكريم ، ونشأته ، وذكر أهم كتبه . الفصل الأول : ما يخص القرآن الكريم من تعريفه ، وجمعه ، وترتيبه ، وسوره ورسمه وبه أربعة مباحث : المبحث الأول : جمع القرآن الكريم ، وترتيبه : في عهد النبي ، وأبي بكر ، وعثمان

المبحث الثاني : الشبه التي أثيرت حول جمع القرآن الكريم والرد عليها.

المبحث الثالث : ترتيب الآيات والسور القرآن وآياته و الرسم العثماني
المبحث الرابع : الفوائل القرآنية .

الفصل الثاني : الوحي ونزول القرآن الكريم .

وبه ثلاثة مباحث : المبحث الأول : الوحي .

المبحث الثاني : المكي والمدني .

المبحث الثالث : نزول القرآن الكريم .

الفصل الثالث : أسباب النزول وما يتعلّق بها من أحكام .

وبه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : معنى أسباب النزول وفوائدها وما يعتمد عليه في معرفتها .

المبحث الثاني : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

تعدد الروايات في سبب النزول .

المبحث الثالث : تعدد النزول مع وحدة السبب . المناسبات بين الآيات .

ثم بعد ذلك تأتي الخاتمة ، وبعدّها قائمة المصادر والمراجع والفهرس .

وكتبه

د/محمد علي قنديل

أستاذ الدراسات الإسلامية المساعد

بكلية الآداب - جامعة أسيوط

المدخل : التعريف بعلم علوم القرآن ونشأته
وأهم كتبه .

التعريف بعلم علوم القرآن :

" وي يكن أن نعرفه بأنه مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله ، وترتيبه ، وجمعه وكتابته ، وقراءته ، وتفسيره ، وإعجازه ، وناسخه ، ومنسوخه، ودفع الشبه عنه ، ونحو ذلك . وموضوعه القرآن الكريم من أية ناحية من النواحي المذكورة في التعريف السابق . فعلم القراءات مثلاً موضوعه القرآن الكريم من ناحية لفظه ، وأدائه . وعلم التفسير موضوعه القرآن الكريم من ناحية شرحه ومعناه ، وهلم جرا . وفائدة هذا العلم: ترجع إلى الثقافة العالمية العامة في القرآن الكريم ، وإلى التسلح بالمعارف القيمة فيه استعداداً لحسن الدفاع عن حمى الكتاب العزيز. ثم إلى سهولة خوض غمار تفسير القرآن الكريم به كمفتاح للمفسرين . فمثله من هذه الناحية كمثل علوم الحديث بالنسبة لمن أراد أن يدرس علم الحديث .

وقد صرَح السيوطي بذلك في خطبة كتابه الإنقاذه إذ قال: ولقد كنت في زمان الطلب أتعجب من المتقدمين إذ لم يدونوا كتاباً في أنواع علوم القرآن كما وضعوا ذلك بالنسبة إلى علم الحديث .

هذا وإنما سمى هذا العلم بعلوم القرآن بالجمع دون الإفراد. للإشارة إلى أنه خلاصة علوم متنوعة باعتبار أن مباحثه المدونة تتصل اتصالاً وثيقاً كما علمت بالعلوم الدينية والعلوم العربية . حتى إنك لتجد كل مبحث منها خليقاً أن يسلك في عداد مسائل علم من تلك العلوم .

فنسبته إليها كنسبة الفرع إلى أصوله أو الدليل إلى مدلوله. وما أشبهه بباقية منسقة من الورود والياسمين إزاء بستان حافل بالوان الزهور والرياحين. والحمد لله رب العالمين".^١

في تاريخ علوم القرآن وظهور اصطلاحه عهد ما قبل التدوين .

"كان الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعرفون عن القرآن وعلومه ما عرف العلماء ، وفوق ما عرف العلماء من بعد . ولكن معارفهم لم توضع على ذلك العهد كفنون مدونة ولم تجمع في كتب مؤلفة ؛ لأنّه لم تكن لهم حاجة إلى التدوين والتأليف. أما الرسول صلوات الله وسلامه عليه فلأنّه كان يتلقى الوحي عن الله وحده. والله تعالى كتب على نفسه الرحمة ليجمعنه له في صدره وليطلقن لسانه بقراءته وترتيله وليميطن له اللثام عن معانيه وأسراره. اقرأ إن شئت قوله سبحانه: "لا تحرّك به لسانك لتعجل به إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ إِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ" ثمَّ إنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ".^٢

ثم بلغ الرسول ما أنزل عليه لأصحابه ، وقرأه على الناس على مكتأ أي على مهل وئدة ؛ ليحسنوا أخذه ، ويحفظوا لفظه ، ويفهموا سره. ثم شرح الرسول لهم القرآن بقوله ، وبعمله ، ويتقريره ، وبخلقه أي بستنته الجامعة لأقواله وأفعاله وتقريراته وصفاته مصداقاً لقوله سبحانه: "وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" . ولكن الصحابة وقتئذ كانوا عرباً خلصاً متمتعين بجميع خصائص العربية ، ومزاياها الكاملة . من قوة في الحافظة ، وذكاء في القرية ، وتدوّق للبيان

^١) مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني ، تحقيق: فواز أحمد زمرلي ، دار الكتاب العربي / ١ ، ٢٧ ، ٢٨ .

^٢) سورة القيمة الآيات (١٦ : ١٩) .

^٣) النحل الآية (٤٤) .

وتقدير للأساليب وزن لما يسمعون بأدق المعايير. حتى أدركوا من علوم القرآن ومن إعجازه بسلiqتهم وصفاء فطرتهم ما لا نستطيع نحن أن ندركه مع رحمة العلوم وكثرة الفنون.

وكان الصحابة رضوان الله عليهم مع هذه الخصائص أميين وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لديهم ، والرسول نحاهم أن يكتبوا عنه شيئاً غير القرآن . وقال لهم أول العهد بنزول القرآن فيما رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: "لا تكتبوا عني. ومن كتب غير القرآن فليمحه. وحدثوا عني فلا حرج. ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" . وذلك مخافة أن يتسبس القرآن بغierre أو يختلط بالقرآن ما ليس منه ما دام الوحي نازلاً بالقرآن. فلتلك الأسباب المتضادة لم تكتب علوم القرآن كما لم يكتب الحديث الشريف. ومضى الرعيل الأول على ذلك في عهد الشيوخين أبي بكر وعمر. ولكن الصحابة كانوا مضرب الأمثال في نشر الإسلام وتعاليمه ، والقرآن وعلومه ، والسنّة وتحريها تلقينا لا تدوينا ومشافهة لا كتابة".
٢

عهد التمهيد لتدوين علوم القرآن .

" ثم جاءت خلافة عثمان رضي الله عنه وقد اتسعت رقعة الإسلام ، واحتلّت العرب الفاخون بالأمم التي لا تعرف العربية ، وخيف أن تذوب خصائص العروبة من العرب من جراء هذا الفتح والاختلاف . بل خيف على القرآن نفسه أن يختلف المسلمون فيه إن لم يجتمعوا على مصحف إمام فتكون فتنة في الأرض وفساد كبير؟

^١) صحيح مسلم ٤ / ٢٢٩٨ حديث رقم ٣٠٠٤ .

^٢) منهال العرفان في علوم القرآن ١ / ٢٩ ، ٣٠ .

لهذا أمر رضي الله عنه أن يجمع القرآن في مصحف إمام ، وأن تنسخ منه مصاحف يبعث بها إلى أقطار الإسلام ، وأن يحرق الناس كل ما عداها ولا يعتمدو سواها. كما يأتيك تفصيله في مبحث جمع القرآن وكتابته.

وبهذا العمل وضع عثمان رضي الله عنه الأساس لما نسميه علم رسم القرآن أو علم الرسم العثماني. ثم جاء علي رضي الله عنه فلاحظ العجمة تحيف على اللغة العربية وسمع ما أوجس منه خيفة على لسان العرب . فأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع بعض قواعد حماية لغة القرآن من هذا العبث والخلل ، وخطط له الخطط وشرع له المنهج. وبذلك يمكننا أن نعتبر أن عليا رضي الله عنه قد وضع الأساس لما نسميه علم النحو ويتبعه علم إعراب القرآن. على الخلاف في هذه الرواية.

ثم انقضى عهد الخلافة الرشيدة وجاء عهد بنى أمية وهمة مشاهير الصحابة والتابعين متوجهة إلى نشر علوم القرآن بالرواية والتلقين لا بالكتابة والتدوين. ولكن هذه الهمة في هذا النشر يصح أن نعتبرها تمهيداً للتدوينها . وعلى رأس من ضرب بسهم وفيه في هذه الرواية الأربع الخلفاء ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن الزير ، وكلهم من الصحابة رضوان الله عليهم. وعلى رأس التابعين في تلك الرواية مجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، وقتادة ، والحسن البصري ، وسعيد بن جبير ، وزيد بن أسلم بالمدينة ، وعنه أخذ ابنه عبد الرحمن ومالك بن أنس من تابعي التابعين رضي الله عنهم أجمعين. وهؤلاء جميعاً يعتبرون أنهم واضعوا الأساس لما يسمى علم التفسير ، وعلم أسباب النزول ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، وعلم غريب القرآن ونحو ذلك.^١"

عهد التدوين لعلوم القرآن .

" ثم جاء عصر التدوين فألفت كتب في أنواع علوم القرآن ، واتجهت المهم قبل كل شيء إلى التفسير باعتباره أُم العلوم القرآنية لما فيه من التعرض لها في كثير من المناسبات عند شرح الكتاب العزيز. ومن أوائل الكاتبين في التفسير شعبة بن الحجاج ، وسفيان بن عيينة ، ووكيع بن الجراح ، وتفاسيرهم جامعة لأقوال الصحابة والتابعين. وهم من علماء القرن الثاني. ثم تلاهم ابن حirir الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ وكتابه أصل التفاسير وأعظمها ؛ لأنه أول من عرض لتوجيهه الأقوال وترجح بعضها على بعض كما عرض للإعراب والاستنباط. وبقيت العناية بالتفسير قائمة إلى عصمنا هذا حتى وجدت منه مجموعة رائعة فيها المعجب والمطرب ، والموجز والمطول والمتوسط ، ومنها التفسير بالمعنى ، والتفسير بالتأثر ومنها تفسير القرآن كله ، وتفسير جزء ، وتفسير سورة ، وتفسير آيات الأحكام إلى غير ذلك .

أما علوم القرآن الأخرى ففي مقدمة المؤلفين فيها: علي بن المديني شيخ البخاري إذ ألف في أسباب النزول وأبو عبيد القاسم بن سلام إذ كتب في الناسخ والمنسوخ وكلاهما من علماء القرن الثالث. وفي مقدمة من ألف في غريب القرآن أبو بكر السجستاني وهو من علماء القرن الرابع. وفي طليعة من صنف في إعراب القرآن علي ابن سعيد الحوفي وهو من علماء القرن الخامس. ومن أوائل من كتب في مبهمات القرآن: أبو القاسم عبد الرحمنالمعروف بالسيبى وهو من علماء القرن السادس. كذلك تصدر للتأليف في مجاز القرآن ابن عبد السلام وفي القراءات علم الدين السخاوي وهما من علماء القرن السابع. وهكذا قويت العزائم وتبارت المهم ونشأت علوم جديدة للقرآن.

وظهرت مؤلفات في كل نوع منها سواء في ذلك أقسام القرآن ، وأمثال القرآن وحجج القرآن ، وبداعي القرآن ، ورسم القرآن . ثم لا يزال المؤلفون إلى عصرنا هذا يزيدون ، وعلوم القرآن ومؤلفاته تنمو وتزدهر وتزيد بينما الزمان يفنى والعالم يبيد أليس إعجازا آخر للقرآن؟ يريك إلى أي حد بلغ علماء الإسلام في خدمة التنزيه. ويريك أنه كتاب لا تفني عجائبه ولا تنقضي معارفه ولن يستطيع أن يحيط بأسراره إلا صاحبه ومنزله!

إذا أضفت إلى علوم القرآن ما جاء في الحديث النبوي الشريف وعلومه وكتبه وبحوثه باعتبارها من علوم القرآن نظرا إلى أن الحديث شارح للقرآن يبين مهماته ، ويفصل بحملاته ، وينحصر عامه كما قال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم: " **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**" أقول: إذا أضفت الحديث النبوي وعلومه إلى علوم القرآن تراءى لك بحر متلاطم الأمواج. فإذا زدت عليها سائر العلوم الدينية والعربية باعتبارها خادمة للقرآن ، أو مستمدة منه رأيت نفسك أمام مؤلفات كالجبال ، وموسوعات تكاثر الرمال .

ولا نعلم أن أحدا قبل المائة الرابعة للهجرة ألف أو حاول أن يؤلف في علوم القرآن بالمعنى المدون ؛ لأن الدواعي لم تكن موفورة لديهم نحو هذا النوع من التأليف. وإن كنا نعلم أنها كانت مجموعة في صدور المبرزين من العلماء على الرغم من أنهم لم يدونوها في كتاب ولم يفردوها باسم.

أجل: كانت علوم القرآن مجموعة في صدور المبرزين من العلماء. فنحن نقرأ في تاريخ الشافعي رضي الله عنه أنه في مختنته التي اثمن فيها بأنه رئيس حزب العلوين باليمن ، وسيق بسبب هذه التهمة إلى الرشيد مكبلا بالحديد في بغداد . سأله الرشيد حين لمح علمه وفضله فقال: كيف علمك يا شافعي بكتاب الله عز وجل؟

فإنه أولى الأشياء أن يبدأ به. فقال الشافعي: عن أي كتاب من كتب الله تسألني يا أمير المؤمنين؟ فإن الله تعالى قد أنزل كتبًا كثيرة. قال الرشيد: قد أحسنت لكن إنما سألت عن كتاب الله المنزّل على ابن عمّي محمد صلّى الله عليه وسلم. فقال الشافعي: إن علوم القرآن كثيرة فهل تأسّلني عن حكمه ومتّاشبّهه ، أو عن تقديره وتأخّيره ، أو عن ناسخه ومنسوخه أو عن؟؟ أو عن وصار يسرد عليه من علوم القرآن ويجيب على كل سؤال بما أدهش الرشيد والحاضرين.

فأنت ترى من جواب الشافعي هذا ومن فلجه بالصواب في هذا الموقف الرهيب، ما يدلّك على أن قلوب أكابر العلماء كانت أناجيل لعلوم القرآن من قبل أن تجمع في كتاب أو تدون في علم. وقد نوه جلال الدين البلقيني في خطبة كتابه بكلمة الشافعي التي ذكرناها إذ قال: قد اشتهر عن الإمام الشافعي رضي الله عنه مخاطبة بعض خلفاء بني العباس فيها ذكر بعض أنواع علوم القرآن يحصل منها لمقصدنا الاقتباس.^١

أول عهد لظهور هذا الاصطلاح وأهم كتب هذا العلم .

ولقد كان المعروف لدى الكتابين في تاريخ هذا الفن أن أول عهد ظهر فيه هذا الاصطلاح أي اصطلاح علوم القرآن هو القرن السابع.

لكن هناك كتاب لعلي بن إبراهيم بن سعيد الشهير بالحوفي المتوفى سنة ٤٣٠ هـ اسمه البرهان في علوم القرآن. وهو يقع في ثلاثين مجلداً والموجود منه الآن خمسة عشر مجلداً غير مرتبة ولا متعاقبة من نسخة مخطوطة. وإنّا نستطيع أن نتقدّم بتاريخ هذا الفن نحو قرنين أي إلى بداية القرن الخامس بدلاً من القرن

السابع. وهو في كتابه هذا يعرض الآية الكريمة بترتيب المصحف ثم يتكلم عليها من علوم القرآن خاصا كل نوع منها بعنوان فيسوق النظم الكريم تحت عنوان: القول في قوله عز وجل. وبعد أن يفرغ منه يضع هذا العنوان: القول في الإعراب ويتحدث عنها من الناحية النحوية واللغوية: ثم يتبع ذلك بهذا العنوان القول في المعنى والتفسير ويشرح الآية بالمؤثر والمعقول. ثم ينتقل من الشرح إلى العنوان الآتي: القول في الوقف والتمام مبينا تحته ما يجوز من الوقف وما لا يجوز. وقد يفرد القراءات بعنوان مستقل فيقول القول في القراءة. وقد يتكلم في الأحكام الشرعية التي تؤخذ من الآية عند عرضها ففي آية " وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقْدِمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ " من سورة البقرة يذكر^١ أوقات الصلاة وأدلتها وأنصبة الزكوة ومقاديرها. ويtalk على أسباب النزول وعلى النسخ ، وما إلى ذلك عند المناسبة. فأنت ترى أن هذا الكتاب أتى على علوم القرآن ؛ ولكن لا على طريقة ضم النظائر والأشباه بعضها إلى بعض تحت عنوان واحد لنوع واحد بل على طريقة النشر والتوزيع تبعا لانتشار الألفاظ المتشاكلة في القرآن وتوزعها. حتى كأن هذا التأليف تفسير من التفاسير عرض فيه صاحبه لأنواع من علوم القرآن عند المناسبات. وأيا ما يكن هذا الكتاب فإنه مجهد عظيم ومحاولة جديرة بالتقدير في هذا الباب. جزى الله مؤلفه خير الجزاء.

ثم جاء القرن السادس فألف فيه ابن الجوزي المتوفي سنة ٥٩٧ هـ كتابين: أحدهما اسمه فنون الأفنان في علوم القرآن ، والثاني اسمه المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن. وكلاهما مخطوط بدار الكتب المصرية.

^١ سورة البقرة من الآية (١١٠) .

وفي القرن السابع ألف علم الدين السخاوي المتوفى سنة ٦٤١ هـ كتاباً سماه جمال القراء ، وألف أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ كتاباً سماه المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز . وهمَا كما قال السيوطي : عبارة عن طائفة يسيرة ونبذ قصيرة بالنسبة للمؤلفات التي ألفت بعد ذلك في هذا النوع.

ثم أهل القرن الثامن فكتب فيه بدر الدين الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤ هـ كتاباً سماه البرهان في علوم القرآن . وتوجد منه نسخة مخطوطة بالخزانة التيمورية في دار الكتب المصرية تقع في مجلدين ناقصين. ثم طلع القرن التاسع على هذا العلم باليمن والبركة فدرج فيه وترعرع إذ ألف محمد بن سليمان الكافيحي المتوفى سنة ٨٧٣ هـ كتاباً يقول السيوطي عنه: إنه لم يسبق إليه وقد اشتمل على بابين: الأول في ذكر معنى التفسير والتأويل والقرآن والسورة والآية. أما الثاني ففي شروط القول في القرآن بالرأي. وبعدهما خاتمة في آداب العالم والمتعلم غير أنه قال أخيراً : ولكن ذلك لم يشف لي غليلاً ولم يهدني إلى المقصود سبيلاً. وفي هذا القرن أيضاً وضع جلال الدين البلقيني كتاباً سماه موقع العلوم من موقع النجوم. وقد رتبه على ستة مباحث الأول في مواطن النزول وأوقاته ووقائعه وفيه اثنا عشر نوعاً. الثاني في سند القرآن وهو ستة أنواع. الثالث في أدائه وهو ستة أنواع أيضاً. الرابع في ألفاظه وهو سبعة أنواع . الخامس في معانيه المتعلقة بأحكامه وهو أربعة عشرة نوعاً . السادس في معانيه المتعلقة بألفاظه وهو خمسة أنواع . وبذلك يكمل الكتاب كله خمسين نوعاً غير ما فيه من أنواع الأسماء والمعنى والألقاب والمبهمات. وهي لا تدخل تحت حصر.

وفي هذا القرن التاسع أيضاً ألف السيوطي كتاباً سماه التجbir في علوم التفسير ضمنه ما ذكره البلقيني من أنواع مع زيادة مثلها ، وأضاف إليه فوائد سمحت

قریحته بنقلها . وقد أوفى هذا الكتاب على الاثنين بعد المائة من الأنواع . وفرغ الإمام من تأليف تحبيه هذا سنة ٨٧٢ هـ ، غير أن نفسه الكبيرة لم تقنع بهذا المجهود العظيم بل طمح إلى التبحر والتوسع والترتيب فوضع كتابه الثاني كتاب الإتقان في علوم القرآن ، وهو عمدة الباحثين والكتابين في هذا الفن . ذكر فيه ثمانين نوعاً من أنواع علوم القرآن على سبيل الإجمال والإدماج ، ثم قال بعد أن سردها نوعاً نوعاً : ولو نوعت باعتبار ما أدرجته فيها لزالت على الثلاثمائة ..

وتوفي السيوطي رحمه الله سنة ٩١١ هـ في مفتتح القرن العاشر وكان نهايته كانت نهاية لنھضة التأليف في علوم القرآن عليه سحائب الرحمة والرضوان فلم ير من سار في هذا المضمار مثله بعده .^١

^١) منهال العرفان في علوم القرآن ١ / ٣٣ : ٣٥ .

الفصل الأول : ما يخص القرآن الكريم من تعريفه

، وجمعه ، وترتيبه ، وسوره ورسمه

وبه أربعة مباحث :

المبحث الأول : جمع القرآن الكريم ، وترتيبه :

في عهد النبي ، وأبي بكر ، وعثمان

المبحث الثاني : الشبه التي أثيرت حول جمع القرآن الكريم ، والرد عليها .

المبحث الثالث : ترتيب الآيات والسور وسور القرآن

وآياته . و الرسم العثماني .

المبحث الرابع : الفواصل القرآنية .

المبحث الأول :
جمع القرآن الكريم ،
وترتيبه : في عهد النبي ،
وأبي بكر ، وعثمان

كلمة جمع القرآن تطلق تارة ويراد منها حفظه واستظهاره في الصدور. وتطلق تارة أخرى ويراد منها كتابته كله حروفًا وكلمات آيات وسوراً. هذا جمع في الصحائف والسطور وذاك جمع في القلوب والصدور.

ثم إن جمعه بمعنى كتابته حدث في الصدر الأول ثلاث مرات: الأولى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، والثانية في خلافة أبي بكر ، والثالثة على عهد عثمان وفي هذه المرة الأخيرة وحدها نسخت المصاحف وأرسلت إلى الآفاق.

جمع القرآن بمعنى حفظه في الصدور

نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم فكانت همته بادئ ذي بدء منصرفة إلى أن يحفظه ويستظره ثم يقرأه على الناس على مكث ليحفظوه ويستظروه ضرورة أنه نبي أمي بعثه الله في الأميين. "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُرِيكُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" . ومن شأن الأمي أن يعول على حافظته فيما يفهم أمره ويعنيه استحضاره وجمعه. خصوصاً إذا أوتي من قوة الحفظ والاستظهار ما ييسر له هذا الجمع والاستحضار. وكذلك كانت الأمة العربية على عهد نزول القرآن وهي متمتعة بخصائص العروبة الكاملة التي منها سرعة الحفظ وسيلان الأذهان ؛ حتى كانت قلوبهم أناجيلهم ، وعقولهم سجلات أنسابهم وأيامهم وحوافظهم دواوين أشعارهم ومفاخرهم . ثم جاء القرآن فبهرهم بقوته بيانه

^١ سورة الجمعة الآية (٢) .

وأخذ عليهم مشاعرهم بسطوة سلطانه ، واستأثر بكريم مواهبهم في لفظه ومعناه فخلعوا عليه حياتهم حين علموا أنه روح الحياة .

أما النبي صلى الله عليه وسلم فبلغ من حرصه على استظهار القرآن ، وحفظه أنه كان يحرك لسانه فيه في أشد حالات حرجه وشدته وهو يعني ما يعنيه من الوحي وسطوته ، وجبريل في هبوطه عليه بقوته. يفعل الرسول كل ذلك استعجالاً لحفظه وجمعه في قلبه خافة أن تفوته كلمة أو يفلت منه حرف . وما زال صلى الله عليه وسلم كذلك حتى طمأنه ربه بأن وعده أن يجمعه له في صدره وأن يسهل له قراءة لفظه وفهم معناه فقال له في سورة القيامة : "لا تُحِّرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلْ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ" ^١ .

ومن هنا كان صلى الله عليه وسلم جامع القرآن في قلبه الشريف وسيد الحفاظ في عصره المنيف . ومرجع المسلمين في كل ما يعنيهم من أمر القرآن وعلوم القرآن . وكان صلى الله عليه وسلم يقرؤه على الناس على مكث كما أمره مولاه وكان يحيي به الليل ويزين الصلاة . وكان جبريل يعارضه إياه في كل عام مررة . وعارضه إياه في العام الأخير مرتين .

وأما الصحابة رضوان الله عليهم فقد كان كتاب الله في محل الأول من عناءاتهم . يتنافسون في استظهاره وحفظه . ويتسابقون إلى مدارسته وتفهمه . ويتفاضلون فيما بينهم على مقدار ما يحفظون منه . وربما كانت قرة عين

^١ سورة القيمة الآيات (١٦ : ١٩) .

السيدة منهم أن يكون مهراها في زواجها سورة من القرآن يعلمها إياها زوجها . وكانوا يهجرون لذة النوم وراحة المهدود إيشارا للذلة القيام به في الليل والتلاوة له في الأسحاق والصلوة به والناس نائم ؛ حتى لقد كان الذي يمر ببيوت الصحابة في غسل الدجى يسمع فيها دويًا كدوبي التحل بالقرآن ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يذكر فيهم روح هذه العناية بالتنزيل يبلغهم ما أنزل إليه من ربه . ويعث إلى من كان بعيد الدار منهم من يعلمهم ويقرئهم كما بعث مصعب بن عمير وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته يعلماهم الإسلام ويقرئاهم القرآن ، وأرسل معاذ بن جبل إلى مكة بعد هجرته للتحفيظ والإقراء . قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه : كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل منا يعلمه القرآن وكان يسمع لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضجة بتلاوة القرآن ؛ حتى أمرهم رسول الله أن يخضوا أصواتهم لثلا يتغاظلوا .

من هنا كان حفاظ القرآن في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم جماً غفيراً منهم الأربعة الخلفاء ، وطلحة ، وسعد ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وأبو هريرة ، وابن عمر ، وابن عباس ، وعمرو بن العاص ، وابنه عبد الله ، ومعاوية ، وابن الزبير ، وعبد الله بن السائب ، وعائشة ، وحفصة وأم سلمة ، وهؤلاء كلهم من المهاجرين رضوان الله عليهم أجمعين .

وحفظ القرآن من الأنصار في حياته صلى الله عليه وسلم أبي بن كعب ، ومعاذ ابن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو الدرداء ، ومجمع بن حارثة ، وأنس بن مالك وأبو زيد الذي سُئل عنه أنس فقال : إنه أحد عمومتي رضي الله عنهم

أجمعين. وقيل إن بعض هؤلاء إنما أكمل حفظه للقرآن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. وأيا ما تكن الحال فإن الذين حفظوا القرآن من الصحابة كانوا كثيرين حتى كان عدد القتلى منهم يبئر معونة ويوم اليمامة أربعين ومائة. قال القرطبي قد قتل يوم اليمامة سبعون من القراء . وقتل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ببئر معونة مثل هذا العدد .^١

جمع القرآن بمعنى كتابته في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

قلنا: إن همة الرسول وأصحابه كانت متصرفة أول الأمر إلى جمع القرآن في القلوب بحفظه ، واستظهاره ضرورة أنه نبي أمي بعثه الله في الأميين . أضف إلى ذلك أن أدوات الكتابة لم تكن ميسورة لدليهم في ذلك العهد ، ومن هنا كان التعويل على الحفظ في الصدور يفوق التعويل على الحفظ بين السطور. على عادة العرب أيامئذ من جعل صفحات صدورهم وقلوبهم دواوين لأشعارهم وأنساجهم ومفاححاتهم وأيامهم .

ولكن القرآن حظي بأوقي نصيب من عناية النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم تصرفهم عن اياتهم بحفظه واستظهاره عن اياتهم بكتابته ونقشه، ولكن بمقدار ما سمحت به وسائل الكتابة وأدواتها في عصرهم .

فها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اتخذ كتاباً للوحى كلما نزل شيء من القرآن أمرهم بكتابته وبالغة في تسجيله وتقييده . وزيادة في التوثيق والضبط

^١ انظر مناهل العرفان في علوم القرآن ١ / ١٩٧ : ٢٠١

والاحتياط في كتاب الله تعالى حتى تظاهر الكتابة الحفظ ويعاضد النتش
اللفظ .

وكان هؤلاء الكتاب من خيرة الصحابة فيهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ،
وعلي ، ومعاوية ، وأباز بن سعيد ، وخالد بن الوليد ، وأبي بن كعب وزيد بن
ثابت ، وثابت بن قيس ، وغيرهم . وكان صلى الله عليه وسلم يدهم على
موقع المكتوب من سورته . ويكتبونه فيما يسهل عليهم من العصب
واللخاف ، والرفاع وقطع الأدمى وعظام الأكتاف والأضلاع . ثم يوضع
المكتوب في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهكذا انقضى العهد النبوى
السعيد والقرآن مجموع على هذا النمط ؛ بيد أنه لم يكتب في صحف ولا في
مصاحف . بل كتب متشرور كما سمعت بين الرفاع والعظام ونحوها مما ذكرنا .

لقد وصل القرآن إلينا عن طريق التواتر ؛ ذلك لأن الصحابة كانوا يحفظونه ويروونه
لما بعدهم ، كذلك كان يحفظ القرآن جم من الصحابة فكانت كل قطعة من
القرآن يحفظها جماعة كثيرة من أصحابه صلى الله عليه وسلم ، وجاء في ذلك
أخبار ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم منها ما رواه الترمذى من حديث ابن
عباس رضي الله عنه قال : " قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم أن عمدتم
إلى الأنفال وهي من المثانى وإلى براءة وهي من المئين ، فقرنتم بينهما ولم
تكتبوا بينهما سطر باسم الله الرحمن الرحيم . ووضعتموها في السبع الطوال
ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
مما يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذات العدد ، فكان إذا نزل عليه
الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي

يذكر فيها كذا وكذا وإذا نزلت عليه الآية ، فيقول : ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا . وكانت الأنفال من أوائل ما أنزلت بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لها أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم فوضعتها في السبع الطوال .^١

يظهر من الحديث السابق أن هناك جمّع من الصحابة كانوا يكتبون القرآن ويحفظونه ويروونه ويظهر ذلك من هذه العبارة " فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا " ولفظ بعض يشمل عدد من ثلاثة إلى تسعة أشخاص . " وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبي صلى الله عليه وسلم . وكان هذا الترتيب بتوجيه من جبريل عليه السلام فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان يقول : ضعوا كذا في موضع كذا . ولا ريب أن جبريل كان لا يصدر في ذلك إلا عن أمر الله عز وجل .

أما الصحابة رضوان الله عليهم فقد كان منهم من يكتبون القرآن ، ولكن فيما تيسر لهم من قرطاس ، أو كتف ، أو عظم ، أو نحو ذلك بالمقدار الذي يبلغ الواحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يلتزموا توالياً السور وترتيبها وذلك ؛ لأن أحدهم كان إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه

^١) سنن الترمذى ج ٦ / ٢٧٢ حديث رقم ٣٠٨٦ .. قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .

وسلم أو كتبها ، ثم خرج في سرية مثلا فنزلت في وقت غيابه سورة ؛ فإنه كان إذا رجع يأخذ في حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته ، ثم يستدرك ما كان قد فاته في غيابه فيجمعه ، ويتبعه على حسب ما يسهل له فيقع فيما يكتبه تقادم ، وتأخير بسبب ذلك . وقد كان من الصحابة من يعتمد على حفظه فلا يكتب ؟ جريا على عادة العرب في حفظ أنسابها واستظهار مفاحرها وأشعارها من غير كتابة .^١

واشتهر من جمع القرآن وكتبه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة من كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلهم من الأنصار ، وهم : أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . ووردت الرويات في ذكر هؤلاء ، ولكن لم يكن هؤلاء فقط هم الذين تولوا ذلك الأمر ؛ بل كان غيرهم ، وإنما ذكرتهم الرويات لشهرتهم ومكانتهم بين صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أخرج البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك " عن قَتَادَةَ قَالَ سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَرْبَعَةً كُلُّهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَمُعاذُ بْنُ جَبَلٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَبُو زَيْدٍ "^٢

ووردت الرويات عن التابعين تذكر لنا حفاظ القرآن ورواته فزادت على ذلك أسماء أخرى فقد روي " عن الشعبي جمعه ستة أبي ، وزيد ، ومعاذ ، وأبو الدرداء ، وسعد بن عبيد ، وأبو زيد ، وجمعة بن حاربة قد أخذه إلا سورتين أو ثلاثة ...

^١) مناهل العرفان في علوم القرآن ١ / ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

^٢) صحيح البخاري ٦ / ١٨٧ حدیث رقم ٥٠٠٣ .

ذكر محمد بن الطيب في كتاب الانتصار : الكلام في حملة القرآن في حياة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأقام الأدلة على أنهم كانوا أضعاف هذه العدة المذكورة . وأن العادة تخيّل خلاف ذلك ، ويشهد لصحة ذلك كثرة القراء المقتولين يوم مسيلمة باليمامنة ، وذلك في أول خلافة أبي بكر ، وما في الصحيحين قتل سبعون من الأنصار يوم بئر معونة كانوا يسمون القراء ، ثم أول القاضي الأحاديث السابقة بوجوه : منها اضطرابها وبين وجه الاضطراب في العدد ؛ وإن خرجت في الصحيحين مع أنه ليس منه شيء مرفوع إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ومنها بتقرير سلامتها . فالمعنى لم يجمعه على جميع الأوجه والأحرف والقراءات التي نزل به إلا أولئك النفر . ومنه أنه لم يجمع ما نسخ منه ، وأزيل رسمه بعد تلاوته مع ما ثبت رسمه ، وبقي فرض حفظه ، وتلاوته إلا تلك الجماعة . ومنها أنه لم يجمع جميع القرآن عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخذه من فيه تلقيا غير تلك الجماعة وغير ذلك .

... وذكر الحافظ شمس الدين الذهبي في كتاب معرفة القراء ما يبين ذلك ، وأن هذا العدد هم الذين عرضوه على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، واتصلت بنا أسانيدهم . وأما من جمعه منهم ، ولم يتصل بنا فكثير . فقال : الذين عرضوا على النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- القرآن ، وهم سبعة : عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وأبو الدرداء .

قال: وقد جمع القرآن غيرهم من الصحابة : كمعاذ بن جبل ، وأبي زيد ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وعبد الله بن عمر ، وعقبة بن عامر ولكن لم تتصل بنا قراءة كهم

قال وقرأ على أبي جماعة من الصحابة منهم أبو هريرة وابن عباس وعبد الله بن السائب . " ١

صفوة المقال:

" وصفوة المقال أن القرآن كان مكتوبا كله على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت كتابته ملحوظا فيها أن تشمل الأحرف السبعة التي نزل عليها ؛ غير أن بعض الصحابة كان قد كتب بعض منسوخ التلاوة ، وبعض ما هو ثابت بخبر الواحد ، وربما كتبه غير مرتب ولم يكن القرآن على ذلك العهد مجموعا في صحف ولا مصاحف عامة . " ٢

جمع القرآن على عهد أبي بكر .

روى البخاري في صحيحه " عن زيد بن ثابت قال : بعث إلى أبو بكر لمقتل أهل اليمامة وعندَه عمر ، فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقراءة القرآن ، وإنني أخشى أن يستحرَّ القتل بقراءة القرآن في المواطن كلها ؛ فيذهب قرآن كثير ، وإنني أرى أن تأمر بجمع القرآن قلت : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : هو والله خير فلم ينزل عمر يراجعني في ذلك ؛ حتى شرح الله صدري للذِي شرح له صدر عمر ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر قال زيد : قال أبو بكر : وإنك رجل شاب عاقل لا تفهمك قد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه قال زيد : فوالله لو

^١) البرهان في علوم القرآن للزرتشي ١ / ٢٤٣ : ٢٤٠ .

^٢) منهاج العرفان في علوم القرآن ١ / ٢٠٣ .

كَلَفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنْ الْجِبَالِ مَا كَانَ بِأَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا كَلَفَنِي مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ . قُلْتُ كَيْفَ تَفْعَلَنِ شَيْئًا لَمْ يَفْعُلْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ فَلَمْ يَرَلْ يَحْثُ مُرَاجِعَتِي حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدِرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ الَّذِي رَأَيَا . فَسَبَّبْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعَهُ مِنْ الْعُسْبِ وَالرِّقَاعِ وَاللَّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ فَوَجَدْتُ^٣ فِي آخر سورة التوبه " لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ " إِلَى آخرها مع خزينة أو أبي خزينة فالحقنها في سورتها وكانت الصحف عند أبي بكر خياته حتى توفاه الله عز وجل، ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر".

٤

هكذا يثبت من الحديث السابق جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه . وقد كان القرآن يكتب على جريد النخيل ، وسعفه ، والجلود ، والحجارة الكبيرة ، وكذلك كان محفوظا في قلوب الرجال . فجمع القرآن على عهد أبي بكر حفظا له من الضياع بموت حفاظه وقرائه .

والسبب في عدم جمعه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم في مصحف واحد ؛ لتواتي الوحي وقتا بعد وقت ؛ وكذلك كان يرد النسخ على البعض ، فلو جمعه ثم رفعت تلاوة بعض منه ؛ لأدى إلى الاختلاف ، وفيما يلي نص عن ابن عباس رضي الله عنه يثبت ذلك .

^١) العسب : هو جريد النخل لم يثبت عليه الخوص . لسان العرب لابن منظور ج ٤ / ٢٩٣٦ .

^٢) الرقاع : الجلود ، كان يكتب عليها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

^٣) اللخاف : اللحجارة . لسان العرب ج ١ / ٥٥ .

^٤) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث زيد بن ثابت ج ٧ / ٧٤ ، ٧٥ حدث رقم ٧١٩١ .

" قال ابن عباس : قلت لعثمان : ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم؟"

قال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتي عليه الزمان وتنزل عليه السور ، وكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتبه فقال : ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل من المدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ؛ فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ " ثم كتبت فثبت أن القرآن كان على هذا التأليف والجمع في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وإنما ترك جمعه في مصحف واحد ؛ لأن النسخ كان يرد على بعض فلو جمعه ثم رفعت تلاوة بعض لأدى إلى الاختلاف ، واحتلاط الدين ، فحفظه الله في القلوب إلى انقضاء زمان النسخ ثم وفق لجمعه الخلفاء الراشدين ."
١

دستور أبي بكر في كتابة الصحف:

" وانهجم زيد في القرآن طريقة دقيقة محكمة وضعها له أبو بكر ، وعمر فيها ضمان لحياطة كتاب الله بما يليق به من ثبات بالغ ، وحذر دقيق ، وتحريات شاملة ؛ فلم يكتف بما حفظ في قلبه ، ولا بما كتب بيده ، ولا بما سمع بأذنه . بل جعل يتبع ويستقصي آخذنا على نفسه أن يعتمد في جمعه على مصدرين اثنين: أحدهما ما كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . والثاني: ما

كان محفوظا في صدور الرجال. وبلغ من مبالغته في الحبطة والخذر أنه لم يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يدل على ذلك ما أخرجه ابن أبي داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: قدم عمر فقال: من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن فليأت به وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان.

وقال السخاوي في جمال القراء ما يفيد أن المراد بهما رجلان عدلان إذ يقول ما نصه: المراد أئمماً يشهادان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولم يعتمد زيد على الحفظ وحده ؟ ولذلك قال في الحديث الذي رواه البخاري سابقاً إنه لم يوجد آخر سورة براءة إلا مع أبي حزيمة. أي لم يوجد لها مكتوبة إلا مع أبي حزيمة الأنباري مع أن زيداً كان يحفظها وكان كثيراً من الصحابة يحفظونها. ولكن أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة زيادة في التوثيق وبالمبالغة في الاحتياط. وعلى هذا الدستور الرشيد تم جمع القرآن بإشراف أبي بكر ، وعمر ، وأكابر الصحابة ، وإجماع الأمة عليه دون نكير. وكان ذلك منقبة خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر في الإشراف ، ولعمر في الاقتراح ، ولزيد في التنفيذ ، وللصحابة في المعاونة والإقرار.

قال علي كرم الله وجهه: أعظم الناس في المصاحف أحرا أبو بكر رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله أخرجه ابن أبي داود في المصاحف بسند حسن.

وقد قوبلت تلك الصحف التي جمعها زيد بما تستحق من عناية فائقة فحفظها أبو بكر عنده . ثم حفظها عمر بعده. ثم حفظتها أم المؤمنين حفصة بنت عمر بعد وفاة عمر. حتى طلبها منها خليفة المسلمين عثمان رضي الله عنه حيث اعتمد عليها في استنساخ مصاحف القرآن. ثم ردتها إليها بعد ذلك .

مزايا هذه الصحف:

وامتازت هذه الصحف ، أولا: بأنها جمعت القرآن على أدق وجوه البحث والتحري وأسلم أصول التثبيت العلمي كما سبق شرحه لك في الدستور السابق .

ثانيا : أنه اقتصر فيها على ما لم تنسخ تلاوته.

ثالثا : أنها ظفرت بإجماع الأمة عليها وتواتر ما فيها. وإنما اعتمد على الكتابة كمصدر من المصادر زيادة في الاحتياط ومبالغة في الدقة والحدر. ولا يعزى عن بالك أن هذا الجمع كان شاملًا للأحرف السبعة التي نزل بها القرآن تيسيرا على الأمة الإسلامية كما كانت الأحرف السبعة في الواقع كذلك."

جمع القرآن في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه

إن أول من جمع القرآن بين دفتي المصحف هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان ذلك بمشورة عمر بن الخطاب ، وموافقة زيد بن ثابت رضي الله عنهم . ووُضعت نسخة من المصحف عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب .

بدأ الإسلام ينتشر وتتسع رقعة الدولة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وزاد اتساعها في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ودخل الإسلام كثير من العجم الذين ليس لهم علم بالعربية وأصولها ولهجات العرب ولغاتهم . بدأ اللحن يدب في قراءة القرآن من هؤلاء ، زد على ذلك اختلاف القراءات واللهجات التي كان يقرأ بها القرآن حيث أنه أنزل على سبع لغات ولهجات من لهجات القبائل العربية . وأصبح الأمر ماساً لتوحيد الجميع على قراءة واحدة .

فاتجه عثمان لجمع الناس على قراءة واحدة ، " ولم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وإلغاء ما ليس كذلك وأخذهم بمصحف لا تقدم فيه ولا تأخير ولا تأويل أثبتت مع تنزيل ، ومنسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه خشية دخول الفساد والتشبهة على من يأتي بعد "

وقد روى البخاري في صحيحه عن " أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدِمَ عَلَى عُثْمَانَ وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشَّامِ فِي فَتْحِ إِرْمِينِيَّةَ وَأَذْرِيْجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَأَفْرَغَ حَذِيفَةَ اخْتِلَافُهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ فَقَالَ حَذِيفَةُ لِعُثْمَانَ يَا أَمِيرَ

الْمُؤْمِنِينَ أَدْرَكَ هَذِهِ الْأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ
وَالنَّصَارَى فَأَرْسَلَ عُثْمَانَ إِلَى حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحْفِ نَسَخُهَا فِي
الْمَصَاحِفِ ثُمَّ نَرْدُهَا إِلَيْكِ فَأَرْسَلْتُ بِهَا حَفْصَةً إِلَى عُثْمَانَ فَأَمَرَ رَبِيعَ بْنَ ثَابِتٍ
وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيرِ وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنَ هَشَامٍ
فَنَسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّنَ الْثَّلَاثَةِ إِذَا اخْتَلَفْتُمْ
أَنْتُمْ وَرَبِيعٌ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِّنَ الْقُرْآنِ فَأَكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرْيَاشٍ فَإِنَّمَا نَزَّلَ
بِلِسَانِهِمْ فَفَعَلُوا حَتَّىٰ إِذَا نَسَخُوا الصُّحْفَ فِي الْمَصَاحِفِ رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحْفَ
إِلَى حَفْصَةَ وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفْقٍ بِمُصْحَفٍ مِّمَّا نَسَخُوا وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ
فِي كُلِّ صَحِيقَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ " ١

وفي الحديث السابق " إثبات ظاهر أن الصحابة جمعوا بين الدفتين القرآن المنزل من غير زيادة ولا نقص . والذى حملهم على جمعه ما جاء في الحديث أنه كان مفرقا في العسب ، واللخاف ، وتصور الرجال ، فخافوا ذهاب بعضه بذهاب حفظه وكتبوه كما سمعوه من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير أن قدموا شيئاً أو أخرموا . وهذا الترتيب كان منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتوقيف لهم على ذلك ، وأن هذه الآية عقب تلك الآية فثبتت أن سعي الصحابة في جمعه في موضع واحد لا في ترتيب ؛ فإن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب الذي هو في مصاحفنا الآن أنزله الله جملة واحدة إلى السماء الدنيا كما قال الله تعالى: " شَهْرُ
رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ " وقال تعالى: " إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقُدرِ " ثم

^١) صحيح البخاري ٦ / ١٨٤ ، ١٨٣ حدث رقم ٤٩٨٧ .

كان ينزل مفرقا على رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة حياته عند الحاجة كما قال تعالى: "وَقُرْآنًا فَرَقْنَا لِتَقْرَأُهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا"

فترتب النزول غير ترتيب التلاوة وكان هذا الاتفاق من الصحابة سبباً لبقاء القرآن في الأمة ورحمة من الله على عباده وتسهيلاً وتحقيقاً لوعده بحفظه كما قال تعالى: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" وزال بذلك الاختلاف واتفقت الكلمة.

قال أبو عبد الرحمن السلمي: كانت قراءة أبي بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت والمهاجرين والأنصار واحدة . كانوا يقرءون القراءة العامة وهي القراءة التي قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبريل مرتين في العام الذي قبض فيه . وكان زيد قد شهد العرضة الأخيرة ، وكان يقرئ الناس بها حتى مات ؛ ولذلك اعتمدوا الصديق في جمعه وولاه عثمان كتابة المصحف .

وقال أبو الحسين بن فارس في المسائل الخمس: جمع القرآن على ضربين أحدهما تأليف السور كتقديم السبع الطوال ، وتعقيبها بالملين ؛ فهذا الضرب هو الذي تولته الصحابة ، وأما الجمع الآخر وهو جمع الآيات في السور فهو توقيفي تولاه النبي صلى الله عليه وسلم .

... وقال أبو عبد الله الحارث بن أسد المخاسي في كتاب فهم السنن : كتابة القرآن ليست محدثة ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابته ؛ ولكنه كان مفرقا في الرقاع والأكتاف والعسب ، وإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها القرآن منتشر فجمعها جامع ، وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء .

^١ سورة الإسراء الآية (١٠٦) .

فإن قيل: كيف وقعت الثقة بأصحاب الرقاع وصدر الرجال؟ قيل: لأنهم شاهدوا تلاوته من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشرين سنة ، فكان تزويد ما ليس منه مأمونا وإنما كان الخوف من ذهاب شيء من صحيحه .^١

وقد ورد أن أبا بكر أمر زيد بن ثابت بجمع القرآن في مصحف واحد ، ولم يجمعه بمفرده ؛ بل شاركه في جمع القرآن أبي بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم أجمعين يظهر ذلك مما أورده صاحب البرهان حيث قال :

" وأما أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل فبغير شك جعوا القرآن والدلائل عليه متظاهرة ؛ وهذا المعنى لم يجتمعوا السنن في كتاب . إذ لم يمكن ضبطها كما ضبط القرآن ، ومن الدليل على ذلك أن تلك المصاحف التي كتب منها القرآن كانت عند الصديق لتكون إماما ، ولم تفارق الصديق في حياته ، ولا عمر أيامه ، ثم كانت عند حفصة . ولما احتج إلى جمع الناس على قراءة واحدة وقع الاختيار عليها في أيام عثمان فأخذ ذلك الإمام ، ونسخ في المصاحف التي بعث بها إلى الكوفة وكان الناس متrocين على قراءة ما يحفظون من قراءتهم المختلفة حتى خيف الفساد فجمعوا على القراءة التي نحن عليها . والمشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان رضي الله عنه وليس كذلك ، إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه ، وبين من شهد من المهاجرين ، والأنصار ؛ لما خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات والقرآن . وأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات على الحروف السبعة التي أنزل بها القرآن فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصديق .

روى عن علي أنه قال : رحم الله أبا بكر هو أول من جمع بين اللوحين . ولم يحتاج الصحابة في أيام أبي بكر وعمر إلى جمعه على وجه ما جمعه عثمان ؛ لأنه لم يحدث في أيامهما من الخلاف فيه ما حدث في زمن عثمان ولقد وفق لأمر عظيم ورفع الاختلاف وجمع الكلمة وأراح الأمة .

وأما تعلق الروافض بأن عثمان أحرق المصاحف ؛ فإنه جهل منهم وعمى . فإن هذا من فضائله وعلمه فإنه أصلح ولم الشعث ، وكان ذلك واجبا عليه ولو تركه لعصى لما فيه من التضييع وحاشاه من ذلك .

... وفي الجملة إنه إمام عدل غير معاند ولا طاعن في التنزيل ، ولم يحرق إلا ما يجب إحراقه ؛ ولهذا لم ينكر عليه أحد ذلك ؛ بل رضوه وعدوه من مناقبه حتى قال علي : لو وليت ما ولی عثمان لعملت بالمصاحف ما عمل .

١

^١ انظر البرهان في علوم القرآن ١ / ٢٣٨ : ٢٤٠ .

المبحث الثاني
الشبه التي أثيرت
حول جمع القرآن
الكريم ، والرد عليها

لقد وردت شبه كثيرة حول جمع القرآن الكريم تطعن في تواتره ، وفي جمع الصحابة رضوان الله عليهم له . كما أنها تنسب التحرير للقرآن الكريم ، وتدعى ببنقchan ذلك الكتاب الذي بين أيدي المسلمين عما نزل من السماء ، كما أنها تنسب لمصاحف التي بين أيدينا الزيادة عن كلام الله تعالى مما يشعر السامع لهذه الشبه بتحريف في كلام الله عز وجل .

وهذا بالطبع يخالف عقيدة جماعة المسلمين من أهل السنة والقبلة ، ويختلف إجماع الأمة على أن هذا القرآن الذي بين أيدينا هو نفس القرآن الذي نزل به جبريل من السماء على النبي الله العدنان . وكذلك يخالف نص القرآن نفسه الذي ينص على حفظ الله له وعدم تحريفه إلى قيام الساعة قال تعالى : " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَحَافِظُونَ " سورة الحجر الآية (٩) . ولذا سوف نورد هذه الشبه وكذلك الرد عليها .

الشبهة الأولى :

" الشبهة الأولى وهي تعتمد على سبع شبه .

يقولون إن في طريقة كتابة القرآن وجمعه دليلاً على أنه قد سقط منه شيء ، وأنه ليس اليوم بأيدينا على ما زعم محمد أنه أنزل عليه . واعتمدوا في هذه الشبهة على المزاعم الآتية :

أولاً: أن محمداً قال: رحم الله فلاناً لقد أذكرني كذا وكذا آية. كنت أسقطهن ويرى أنسيتهن. فهذا الحديث فيه اعتراف من النبي نفسه بأنه أسقط عمداً بعض آيات القرآن أو أنسىها.

ثانياً: أن ما جاء في سورة الأعلى "سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ" يدل بطريق الاستثناء الواقع فيه على أن محمدا قد أسقط عمداً أو أنسى آيات لم يتفق له من يذكره إليها .

ثالثاً: أن الصحابة حذفوا من القرآن كل ما رأوا المصلحة في حذفه فمن ذلك آية المنع أسقطها علي بن أبي طالب ، وكان يضرب من يقرؤها. وهذا مما شاعت عائشة به عليه فقالت: إنه يجلد على القرآن وينهي عنه وقد بدله وحرفه .

رابعاً: أن أبي بن كعب حذف من القرآن ما كان يرويه ولا نجده اليوم في المصحف وهو: اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفك ونتوب إليك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونشفي عليك الخير كله. نشكرك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك. اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعي ونخاف عذابك إن عذابك الجد بالكافر ملحق.

خامساً: أن كثيرة من آياته لم يكن لها قيد سوى تحفظ الصحابة ، وكان بعضهم قد قتلوا في مغازي محمد وحروب خلفائه الأولين ، وذهب معهم ما كانوا يتحفظونه من قبل أن يوعز أبو بكر إلى زيد بن ثابت بجمعه ؛ فلذلك لم يستطع زيد أن يجمع سوى ما كان يتحفظه الأحياء.

سادساً: أن ما كان مكتوبا منه على العظام وغيرها فإنه كان مكتوبا عليها بلا نظام ولا ضبط ، وقد ضاع بعضها . وهذا ما حدا العلماء إلى الرزعم أن فيه آيات نسخت حرفا لا حكما. وهو من غريب المزاعم. وحقيقة الأمر فيها أنها سقطت

بضياع العظم الذي كانت مكتوبة عليه ولم يبق منها سوى المعنى محفوظاً في صدورهم .

سابعاً: لما قام الحاج بنصرة بني أمية لم يبق مصحفاً إلا جمعه ، وأسقط منه أشياء كثيرة قد نزلت فيهم ، وزاد فيه أشياء ليست منه ، وكتب ستة مصاحف جديدة بتتأليف ما أراده ، ووجه بها إلى مصر والشام ومكة والمدينة والبصرة والكوفة . وهي القرآن المتداول اليوم . وعمد إلى المصاحف المتقدمة فلم يبق منها نسخة إلا أغلى لها الخل وطرحها فيه حتى تقطعت . وإنما رام بما فعله أن يتزلف إلى بني أمية فلم يبق في القرآن ما يسوءهم .

نقض هذه المزاعم الباطلة

ملخص هذه الشبهة أن القرآن الذي بأيدينا ناقص سقط منه ماسقط بدليل المزاعم السبعة التي سقناها أمامك . وإن ذفننا مخصوص بين يديك هذه المزاعم لنأتي ببيان هذه الشبهة من القواعد .

ـ أما احتجاجهم الأول وهو الحديث الذي أوردوه فإنه لا ينهض حجة لهم فيما زعموا من الشك في الأصل الذي قامت عليه كتابة القرآن وجمعه . بل الأصل سليم قويم ، وهو وجود هذه الآيات مكتوبة في الوثائق التي استكتبها الرسول ووجودها محفوظة في صدور أصحابه الذين تلقوها عنه ، والذين بلغ عددهم مبلغ التواتر وأجمعوا جميعاً على صحته . كما عرف ذلك في دستور جمع القرآن .

إنما قصارى هذا الخبر أنه يدل على أن قراءة ذلك الرجل ذكرت النبي صلى الله عليه وسلم إليها وكان قد أنسىها أو أسقطها أي نسياناً .

وهذا النوع من النسيان لا يزعزع الثقة بالرسول ولا يشكك في دقة جمع القرآن ونسخه ؛ فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد حفظ هذه الآيات من قبل أن

يحفظها ذلك الرجل ، ثم استكتبها كتاب الوحي ، وبلغها الناس فحفظوها عنه ومنهم رجل الرواية عباد بن بشار رضي الله عنه على ما روی .

وليس في ذلك الخبر الذي ذكروه رائحة أن هذه الآيات لم تكن بالمخفظات التي كتبها كتاب الوحي ، وليس فيه ما يدل على أن أصحاب الرسول كانوا قد نسوها جميعا ؛ حتى يخاف عليها وعلى أمثالها الضياع ، ويخشى عليها السقوط عند الجمع واستنساخ المصحف الإمام ، كما يفترى أولئك الخراسون . بل الرواية نفسها تثبت صراحة أن في الصحابة من كان يقرؤها وسمعها الرسول منه .

ثم إن دستور جمع القرآن وقد مر آنفاً بؤيد أنهم لم يكتبوا في المصحف إلا ما تظاهر الحفظ والكتابه والإجماع على قرآنите: ومنه هذه الآيات التي يدور عليها الكلام هنا من غير ما شك .

الأمر الثاني: أن روايات هذا الخبر لا تفيد أن هذه الآيات التي سمعها الرسول من عباد بن بشار قد امتحن ذهنه الشريف جملة ، غاية ما تفيده أنها كانت غائبة عنه ، ثم ذكرها وحضرت في ذهنه بقراءة عباد . وغيبة الشيء عن الذهن ، أو غفلة الذهن عن الشيء غير محوه منه . بدليل أن الحافظ منا لأي نص من النصوص يغيب عنه هذا النص إذا اشتغل ذهنه بغيره ، وهو يوقن في ذلك الوقت بأنه مخزون في حافظته بحيث إذا دعا إليه داع استعرضه واستحضره ثم قرأه . أما النسيان التام المرادف لامحاء الشيء من الحافظة ؛ فإن الدليل قام على استحالته على النبي صلى الله عليه وسلم فيما يخل بوظيفة الرسالة والتبلیغ . وإذا عرض له نسيان فإنه سحابة صيف لا تحيء إلا لتزول . ولا ريب أن نسيان الرسول هنا كان بعد أن أدى وظيفته وبلغ الناس وحفظوا عنه . فهو نسيان لم يخل بالرسالة والتبلیغ . قال البدر العیني في باب نسيان القرآن من شرحه لصحيح البخاري ما نصه :

وقال الجمّهور: جاز النسيان عليه أي على النبي صلى الله عليه وسلم فيما ليس طريقه البلاع والتعليم بشرط ألا يقر عليه بل لا بد أن يذكره . وأما غيره فلا يجبوز قبل التبليغ ، وأما نسيان ما بلعه كما في هذا الحديث فهو جائز بلا خلاف .
هذا.

٢ - وأما احتجاجهم الثاني وهو الاستثناء الذي في قوله سبحانه: "سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ" فلا يدل على ما زعموا لأنّه استثناء صوري لا حقيقي .
والحكمة فيه أن يعلن الله عباده أن عدم نسيانه صلى الله عليه وسلم الذي وعده الله إياه في قوله: "فَلَا تَنْسَى" إنما هو محض فضل من الله ، وإحسان ولو شاء سبحانه أن ينسيه لأنساه . وفي ذلك الاستثناء الصوري فائدتان: إحداهما ترجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم حيث يشعر دائماً أنه مغمور بنعمة الله وعنايته ما دام متذكراً للقرآن لا ينساه ، والثانية تعود على أمته حيث يعلمون أن نبيهم صلى الله عليه وسلم فيما خصه الله به من العطايا والخصائص ، لم يخرج عن دائرة العبودية فلا يفتون فيه كما فتن النصارى في المسيح ابن مریم .

قال العالمة المرحوم الشيخ محمد عبد عند تفسيره للاستثناء في هذه الآية ما نصه:
وما كان الوعد على وجه التأييد واللزموم ربما يوهم أن قدرة الله لا تسع غيره ، وأن ذلك خارج عن إرادته جل شأنه جاء بالاستثناء في قوله: "إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ" فإنه إذا أراد أن ينسيك شيئاً لم يعجزه ذلك فالقصد هو نفي النسيان رأساً . وقالوا: إن ذلك كما يقول الرجل لصاحبه أنت سهيمي فيما أملك إلا ما شاء الله لا يقصد استثناء شيء ، وهو من استعمال القلة في معنى النفي . وعلى ذلك جاء الاستثناء في قوله تعالى في سورة هود " وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا

دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْدُوذٍ " أي غير مقطوع . فالاستثناء في مثل هذا للتبنيه على أن ذلك التأييد والتخليد بكرم من الله وسعة جود ، لا بتحتيم عليه وإيجاب ، وأنه لو أراد أن يسلب ما وهب لم يمنعه من ذلك مانع .

وما ورد من أنه صلى الله عليه وسلم نسي شيئاً كان يذكره فذلك إن صح فهو في غير ما أنزل الله من الكتاب والأحكام التي أمر بتبلیغها . وكل ما يقال غير ذلك فهو من مدخلات الملحدین التي جازت على عقول المغفلين فلوثوا بها ما طهره الله فلا يليق بهن يعرف قدر صاحب الشريعة صلی الله عليه وسلم ، ويؤمن بكتاب الله أن يتلق بشيء من ذلك .

ذلك رأي في معنى الاستثناء ، وثمة وجه آخر فيه وهو أنه استثناء حقيقي غير أن المراد به منسوخ التلاوة دون غيره ، ويكون معنى الآية أن الله تعالى يقرئ نبيه فلا ينسيه إلا ما شاءه ، وهو ما نسخت تلاوته لحكمة من الحكم التي بينها العلماء في مبحث النسخ . والدليل على هذا قوله سبحانه في سورة البقرة: " مَا نَسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا " قال العلامة أبو السعود^١ في تفسيره: وقرئ ما نسخ من آية أو نسكتها ، وقرئ ما نسكت من آية أو نسخها ، والمعنى أن كل آية نذهب بها على ما تقتضيه الحکمة ، والمصلحة من إزالة لفظها ، أو حكمها ، أو كليهما معاً إلى بدل ، أو إلى غير بدل " نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا " أي نوع آخر هو خير للعباد بحسب الحال في النوع والثواب من الذاهبة . وقرئ بقلب المهمزة ألفاً أو مثلها أي فيما ذكر من النفع والثواب .

^١ سورة هود الآية (١٠٨) .

^٢ سورة البقرة من الآية (١٠٦) .

٤،٣ - وأما احتجاجهم الثالث والرابع : بأن الصحابة قد حذفوا من القرآن عند جمعه ما رأوا المصلحة في حذفه ، ومنه آية المتعة وصيغة القنوت ؛ فهو احتجاج باطل قائم على إهمال النصوص الصحيحة المتضادرة على أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أحرص الناس على الاحتياط للقرآن ، وكانوا أيقظ الخلق في حراسة القرآن ؛ ولهذا لم يعتبروا من القرآن إلا ما ثبت بالتواتر ، وردوا كل ما لم يثبت تواتره ؛ لأنه غير قطعي ويأتي عليهم دينهم وعقلهم أن يقولوا بقرآنية ما ليس بقطعي . وقد سبق لك ما وضعوه من الدساتير المحكمة الرشيدة في كتابة الصحف على عهد أبي بكر وكتابه المصاحف على عهد عثمان .

وإذا كان هؤلاء الطاغيون ي يريدون أن يلمزوا الصحابة ، ويعيدهم بهذه الحيطة البالغة لكتاب الله ؛ حتى أسقطوا ما لم يتواتر ، وما لم يكن في العرضة الأخيرة ، وما نسخت تلاوته وكان يقرؤه من لم يبلغه النسخ - نقول: إذا كانوا يريدون أن يلمزوا الصحابة والقرآن بذلك ، فالأخرى لهم أن يلمزوا أنفسهم ، وأن يواروا سوأتهم ؛ لأن المسلمين كانوا ولا يزالون أكرم على أنفسهم من أن يقولوا في كتاب الله بغير علم وأن ينسبوا إلى الله ما لم تقم عليه حجة قاطعة ، وأن يسلكوا بالقرآن مسلك الكتب المحرفة والأناجيل المبدلة .

وكلمة الفصل في هذا الموضوع : أن آية المتعة التي يزعمون ، وصيغة القنوت التي يحکمون لم يثبت قرآنيتهما حتى يكونا في عداد القرآن ، وإن ادعوا قرآنيتهما فعليهم البيان: " قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " .^١

^١ سورة البقرة من الآية (١١١) .

قال صاحب الانتصار ما نصه: إن كلام القنوت المروي أن أبي بن كعب أثبته في مصحفه لم تقم الحجة بأنه قرآن منزل بل هو ضرب من الدعاء ، وأنه لو كان قرآنا لنقل إلينا نقل القرآن ، وحصل العلم بصحته ، ثم قال : ويمكن أن يكون منه كلام كان قرآنا متزلا ثم نسخ وأبيح الدعاء به وخلط بما ليس بقرآن. ولم يصح ذلك عنه ، إنما روي عنه أنه أثبته في مصحفه ، وقد أثبتت في مصحفه ما ليس بقرآن من دعاء أو تأويل . وهذا الدعاء هو القنوت الذي أخذ به السادة الحفية. وبعضهم ذكر أن أبيا رضي الله عنه كتبه في مصحفه ، وسماه سورة الخلع والحد لورود مادة هاتين الكلمتين فيه .

والخلاصة أن بعض الصحابة الذين كانوا يكتبون القرآن لأنفسهم في مصحف ، أو مصاحف خاصة بهم ربما كتبوا فيها ما ليس بقرآن مما يكون تأويلا لبعض ما غمض عليهم من معاني القرآن ، أو مما يكون دعاء يجري بجري أدعية القرآن في أنه يصح الإتيان به في الصلاة عند القنوت ، أو نحو ذلك ، وهم يعلمون أن ذلك كله ليس بقرآن. ولكن ندرة أدوات الكتابة وكوفهم يكتبون القرآن لأنفسهم وحدهم دون غيرهم هون عليهم ذلك ؛ لأنهم أمنوا على أنفسهم للبس واشتباه القرآن بغيره. فظن بعض قصار النظر أن كل ما كتبوه فيها إنما كتبوه على أنه قرآن مع أن الحقيقة ليست كذلك إنما هي ما علمت .

٥ - وأما احتجاجهم الخامس بأن كثيرا من آيات القرآن لم يكن لها قيد سوى تحفظ الصحابة ، وقد قتل بعضهم وذهب معهم ما كانوا يتحفظونه فلا يسلم لهم؛ لأن نفس ما كان يتحفظه الشهداء من القراء كان يتحفظه كثير غيرهم أيضا من الأحياء الذين لم يستشهدوا ولم يموتوا بدليل قول عمر: وأخشى أن يموت القراء من سائر المواطن ، ومعنى هذا أن القراء لم يموتوا كلهم. إنما المسألة مسألة خشية

وخفوف. ومعلوم أن أبا بكر كان من الحفاظ ، وكذلك عمر ، وعثمان ، وعلى وزيد بن ثابت ، وغيرهم وهؤلاء عاشوا حتى جمع القرآن في الصحف وعاش منهم من عاش حتى نسخ في المصاحف . وحيثند فكتابه زيد ما كتبه هي كتابة لكل القرآن لم تفلت منه كلمة ولا حرف.

وكان القرآن كله مكتوبا كما سبق شرحه وبيانه حتى إن الصحابة في جمعه كانوا يستوثقون له بأن يعتمدوا على الحفظ والكتابة معا دون الالكتفاء بأحد هما ، وكانوا فيما يعتمدون عليه من الكتابة يتأكدون من أنه كتب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ويطلبون على ذلك شاهدين كما سلف إياضه .

٦- وأما احتجاجهم السادس بأن ما كان مكتوبا من القرآن على العظام ونحوها كان غير منظم ، ولا مضبوط الخ فينقضه ما أثبتناه آنفا في جمع القرآن من أن ترتيب آياته كان توقيفيا ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرشد كتاب الوحي أن يضعوا آية كذا في مكان كذا من سورة كذا . وكان يقرئها أصحابه كذلك ، ويحفظها الجميع ويكتبها من شاء منهم لنفسه على هذا النحو ؛ حتى صار ترتيب القرآن وضبط آياته معروفا مستفيضا بين الصحابة حفظا وكتابة. ووجدوا ما كتب عند الرسول من القرآن، مرتب الآيات كذلك في كل رقعة أو عظمة ، وإن كانت العظام والرفاع منتشرة وكثيرة مبعثرة. على أننا قررنا غير مرة أن التعويل كان على الحفظ والتلقى قبل كل شيء ولم يكن التعويل على المكتوب وحده فلا جرم كان في الحفظ والكتابة معا ضمان للنظام والترتيب والضبط والحصر .

- وأما احتجاجهم السابع بما نسبوه إلى الحاجاج فهي نسبة كاذبة لا برهان لها بها ولا دليل عليها. وهذا هو التاريخ فليأتوا لنا منه بسلطان مبين على أن الحاجاج جمع المصاحف فضلاً عن أنه نقص منها أو زاد فيها .

ولو أنه فعل ذلك لنقل إلينا متواترا ؛ لأن هذا مما تتواتر الدواعي على نقله وتواتره وكيف يفعل ذلك والأمة كلها تقره ، وأئمة الدين الموجودون في عهده كالحسن البصري يسكتون ولا ينكرون ولا يدافعون ولا يستقتلون؟ ثم إن الحاجاج كان عملاً من العمال على بعض أقطار الإسلام فأئمته أن يجمع المصاحف ويحرقها فيما عدا ولايته التي هو عامل عليها ؟

وإذا فرضنا أن الحاجاج كان له من القوة والشوكه ما أسلكه به كل الأمة في زمانه على هذا الخرق الواسع في الإسلام ، والقرآن . فما الذي أسلكه المسلمين بعد انقضاء عهد الحاجاج؟ وإذا كان الحاجاج قد استطاع التحكم في المصاحف والتلاعب فيها بالزيادة والنقص ، فكيف استطاع أن يتحكم في قلوب الحفاظ وهم آلاف مؤلفة في ذلك العهد حتى يمحو منها ما شاء ويثبت ما أراد؟.

هذه دعاوى ساقطة تحمل أدلة سقوطها في ألفاظها ، وتدل على جرأة القوم وإغراقهم في الجهل والضلal ."

الشبهة الثانية

" يقولون: إن القرآن كما حصل فيه نقص عند الجمع حصلت فيه زيادة. والدليل على ذلك إنكار ابن مسعود أن المعوذتين من القرآن وأن في القرآن ما هو من كلام أبي بكر وكلام عمر.

وننقض هذه الشبهة أولاً: بأن ابن مسعود لم يصح عنه هذا النقل الذي تمسكتم به من إنكاره كون المعوذتين من القرآن. والمسألة مذكورة في كثير من كتب التفسير وعلوم القرآن مع تحيصها والجواب عليها.

وخلاصة ما قالوه: أن المسلمين أجمعوا على وجوب تواتر القرآن. ويشكل على هذا ما نقل من إنكار ابن مسعود قرآنية الفاتحة والمعوذتين. بل روي أنه حك من مصحفه المعوذتين زعما منه أنهما ليستا من القرآن.

وقد أجابوا عن ذلك بمنع صحة النقل قال النووي في شرح المذهب ما نصه: أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن ، وأن من جحد شيئا منها كفر. وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح ، وقال ابن حزم في كتاب القدر المعلى: هذا كذب على ابن مسعود وموضع. بل صح عن ابن مسعود نفسه قراءة عاصم وفيها المعوذتان والفاتحة. وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر أنه صلى الله عليه وسلم قرأهما في الصلاة. زاد ابن حبان من وجه آخر عن عقبة بن عامر أيضا: فإن استطعت ألا تفوتوك قراءتهما في صلاة فافعل ، وأخرج أحمد من طريق أبي العلاء بن الشخير عن رجل من الصحابة أن النبي صلى الله عليه وسلم أقرأنا المعوذتين وقال له: "إذا أنت صليت فاقرأ بهما" . وإسناده صحيح.

ثانياً: يحتمل أن إنكار ابن مسعود لقرآنية المعوذتين والفاتحة على فرض صحته، كان قبل علمه بذلك فلما تبين له قرآنيتها بعد أن تم التواتر وانعقد الإجماع على قرآنيتها كأن في مقدمة من آمن بأئمها من القرآن.

ثالثاً: أنها إن سلمنا أن ابن مسعود أنكر المعوذتين وأنكر الفاتحة بل أنكر القرآن كله فإن إنكاره هذا لا يضرنا في شيء؛ لأن هذا الإنكار لا ينقض تواتر القرآن ولا يرفع العلم القاطع بثبوته القائم على التواتر. ولم يقل أحد في الدنيا:

إن من شرط التواتر والعلم اليقيني المبني عليه ألا يخالف فيه مخالف. وإلا لأمكن من هدم كل تواتر، وإبطال كل علم قام عليه بمحض أن يخالف فيه مخالف، ولو لم يكن في العبر ولا في النغير. قال ابن قتيبة في مشكل القرآن: ظن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن. لأنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يعود بهما الحسن والحسين فأقام على ظنه، ولا نقول إنه أصاب في ذلك وأخطأ".

الشبهة الثالثة

"يزعم بعض غلاة الشيعة أن عثمان ، ومن قبله أبو بكر ، وعمر أيضا حرفوا القرآن وأسقطوا كثيرا من آياته وسوره . ورووا عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله: أن القرآن الذي جاء به جبريل إلى محمد كان سبعة عشر ألف آية. وروى محمد بن نصر عنه أنه قال: كان في سورة "لم يكن" اسم سبعين رجلا من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم. وروى محمد بن جهم الهمالي وغيره عن أبي عبد الله أن لفظ "أُمَّةٌ هي أَزَبَّ مِنْ أُمَّةٍ" في سورة النحل ليس كلام الله بل هو محرف عن موضعه وحقيقة المنزل أئمّة هي أَزَكَى من أئمّتكم.

ومنهم من قال: إن القرآن كانت فيه سورة تسمى سورة الولاية وأنها أُسقطت بتمامها وأن أكثر سورة الأحزاب سقط إذ أنها كانت مثل سورة الأنعام فأُسقطوا منها فضائل أهل البيت. إلى غير ذلك من الادعاءات الباطلة.

فالقرآن الذي بأيدي المسلمين اليوم شرقاً وغرباً أشد تحريفاً عند هؤلاء الشيعيين من التوراة والإنجيل ، وأضعف تأليفاً بينهما ، وأجمع للأباطيل **قَاتَلُهُمُ اللَّهُ أَنَّ يُؤْفَكُونَ** .^١

وننقض هذه الشبهة بما يأتي:-

أولاً: إنها اتهامات مجردة عن السنن والدلائل ، وكانت لا تستحق الذكر لولا أن ردها بعض الملاحقة ، وربما يخدع بها بعض المفتونين. ويكتفي في بطلانها أنهم لم يستطيعوا ، ولن يستطيعوا أن يقيموا عليها برهاناً ولا شبهة برهان. والدعاوى ما لم يقيموا عليها ... **بِيَنَاتٍ أَبْنَاؤُهَا أَدْعِيَاءٍ** ولكن هكذا شاءت حماقتهم وسفاهتهم " **وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعُلُ مَا يَشَاءُ**" .^١

ثانياً: أن بعض علماء الشيعة أنفسهم تبرأ من هذا السخف ، ولم يطق أن يكون منسوباً إليهم ، وهو منهم فزعاه إلى بعض من الشيعة جمع بهم التفكير ، وغاب عنهم الصواب قال الطبرسي (الطبرسي من رؤساء الشيعة، وكتابه مجمع البيان هو المرجع عندهم) في مجمع البيان ما نصه : أما الزيادة فيه أي القرآن فمجمع على بطلانها. وأما النقصان فقد روي عن قوم من أصحابنا وقوم من الحشوية. وال الصحيح خلافه. وهو الذي نصره المرتضى واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء .

^١ سورة الحج من الآية (١٨) .

وقال الطبرسي أيضاً في مجمع البيان ما نصه: أما الزيادة في القرآن فمجمع على بطلانها وأما النقصان فهو أشد استحالة. ثم قال: إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار ، والواقع العظام ، والكتب المشهورة ، وأشعار العرب المسطورة ، فإن العناية اشتدت ، والداعي توفرت على نقله وحراسته وبلغت إلى حد لم يبلغه شيء فيما ذكرناه ؛ لأن القرآن مفخرة النبوة ، ومائحة العلوم الشرعية ، والأحكام الدينية ، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية ؛ حتى عرروا كل شيء اختلف فيه من إعرابه وقراءاته وحروفه وآياته فكيف يجوز أن يكون مغيراً ، أو منقوضاً مع العناية الصادقة والضبط الشديد؟

ثالثاً: أن التواتر قد قام والإجماع قد انعقد على أن الموجود بين دفتير المصطفى كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير ولا تبديل. والتواتر طريق واضحة من طرق العلم. والإجماع سبيل قويم من سبل الحق. " فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ " .^١

رابعاً: أن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وهو الذي يزعمون أنهم يناصرونـه ، ويتشيعونـ له بهذه المذهبـات صـح النـقل عنـه بـتحبيـذ جـمـع القرآن عـلـى عـهـد أبي بـكـر ثـم عـهـد عـثمان .^٢

^١) سورة يونس من الآية (٣٢) .

^٢) مناهـل العـرفـان فـي عـلـوم القرـآن ١ / ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

الشبهة الرابعة

" يقولون: ورد أن عبد الله بن مسعود قال: يا معاشر المسلمين. أعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل والله لقد أسلمت وإنه لفبي صلب رجل كافر؟ قالوا: وهو يعني بهذا الرجل زيد بن ثابت ، ويريد بذلك الكلام الطعن على جم القرآن. وهذا يدل وبالتالي على أن القرآن الموجود بين أيدينا ليس موضع ثقة ، ولم يبلغ حد التواتر.

وننقض شبهتهم هذه. أولا: بأن كلام ابن مسعود هذا إذا صح لا يدل على الطعن في جم القرآن ؛ إنما يدل على أنه كان يرى في نفسه أنه هو الأولى أن يسند إليه هذا الجمع ؛ لأنه كان يثق بنفسه أكثر من ثقته بزيد في هذا الباب. وذلك لا ينافي أنه كان يرى في زيد أهلية وكفاية للنهوض بما أسنده إليه ، وإن كان هو في نصر نفسه أكفاء وأجدر. غير أن المسألة تقديرية ولا ريب أن تقدير أبي بكر ، وعمر ، وعثمان لزيد أصدق من تقدير ابن مسعود له. كيف وقد عرفت فيما سبق مجموعة المؤهلات ، والمزايا التي توافرت فيه حتى جعلته الجدير بتنفيذ هذه الغاية السامية. أضف إلى ذلك أن عثمان ضم إليه ثلاثة ، ثم كان هو وجمهور الصحابة مشرفين عليهم مراقبين لهم ، وناهيك في عثمان أنه كان من حفاظ وملمي القرآن!

وخلاصة هذا الجواب أن اعتراض ابن مسعود على فرض صحته كان منصبا على طريقة تأليف لجنة الجمع ، لا على صحة نفس الجمع. مع أن كلمة ابن مسعود السالفة لا تدل على أكثر من أنه كان يكبر زيدا بزمن طويل إذ كان عبد الله مسلما ، وزيد لا يزال ضميرا مستترًا في صلب أبيه . وليس هذا بمطعن في زيد فكم ترك الأول للآخر. ولو كان الأمر بالسن لاختل كثير من نظام الكون. ثم إن كلمة

ابن مسعود ربهما يفهم منها الطعن في زيد من ناحية أن أباه كان كافرا ، ولكن هذا ليس بمطعن فكثير من أكابر الصحابة كانوا في مبدأ أمرهم كفارا وخرجوا من أصلاب آباء كافرين. والله تعالى يقول: " وَلَا تَنْزِرُ وَازِدَةً وَرَزْ أُخْرَى " ويقول: " قُلْ لِلّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ " .

ثانيا : أننا إذا سلمنا صحة ما نقل عن ابن مسعود ، وسلمنا أنه أراد الطعن في صحة جمع القرآن لا نسلم أنه دام على هذا الطعن ، والإنكار بدليل ما صح عنه أنه رجع إلى ما في مصحف عثمان ، وحرق مصحفه في آخرة الأمر حين تبين له أن هذا هو الحق ، وبدليل ما صح عنه من قراءة عاصم عن زرعة وقد تقدم.

الشبيهة الخامسة

" يقولون: كيف يكون القرآن متواترا . مع ما يروى عن زيد بن ثابت أنه قال في الجمع على عهد أبي بكر ما نصه : فقمت فتبتعث القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع غيره وهما " لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ " إلى آخر السورة. ثم كيف يكون القرآن متواترا مع ما يروى أيضا عن زيد بن ثابت أنه قال في الجمع على عهد عثمان ما نصه: فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة بن الأنصاري الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين: " مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ " .^٣

^١) سورة الأنعام من الآية (١٦٤) .

^٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ١ / ٢٣٠ .

^٣) سورة الأحزاب من الآية (٢٣) .

والجواب على هذه الشبهة: أولاً: أن كلام زيد بن ثابت هذا لا يبطل التواتر. وبيان ذلك أن الآيتين ختام سورة التوبة لم تثبت قرآنитеهما بقول أبي حزيمة وحده. بل ثبتت بأخبار كثرة غامرة من الصحابة عن حفظهم في صدورهم ، وإن لم يكونوا كتبوا في أوراقهم. ومعنى قول زيد: حتى وجدت من سورة التوبة آيتين لم أجدهما عند غيره ؛ أنه لم يجد الآيتين هما ختام سورة التوبة مكتوبتين عند أحد إلا عند أبي حزيمة فالذى انفرد به أبو حزيمة هو كتابتهما لا حفظهما ، وليس الكتابة شرطا في المتواتر بل المشروط فيه أن يرويه جمجم يؤمن تواطؤهم على الكذب ولو لم يكتبوا واحد منهم فكتابه أبي حزيمة الأنباري كانت توثقا واحتياطا فوق ما يطلبه التواتر ، ويقتضيه فكيف ندح في التواتر بانفراده بما؟.

ثانياً: يقال مثل ذلك فيما روي عن زيد في آية سورة الأحزاب: " مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ " فإن معناه أن زيدا لم يجد لها مكتوبة عند أحد إلا عند حزيمة بن ثابت الأنباري . ويدل على أن هذا هو المعنى الذي أراده زيد بعبارة تلك قول زيد نفسه : فقدت آية من سورة الأحزاب الخ فإن تعبيره بلفظ فقدت يشعر بأنه كان يحفظ هذه الآية ، وأنها كانت معروفة له غير أنه فقد مكتوبها فلم يجده إلا مع حزيمة ، وإلا فمن الذي أنبأ زيدا أنه فقد آية؟ "

^١) منهال العرفان في علوم القرآن ١ / ٢٣١ ، ٢٣٢ .

المبحث الثالث

ترتيب الآيات والسور

سور القرآن وآياته

والرسم العثماني

في عدد سوره وآياته وكلماته وحروفه .

أولا : في عدد سور القرآن الكريم .

لقد اختلف صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في عد سور القرآن على أقوال كثيرة . فمنهم من جعلها مائة واثني عشرة بجعل المعوذتين سورة واحدة ، والأنفال وبراءة سورة أيضا ، ومنهم من جعلها مائة وثلاث عشرة بجعل سورة الأنفال وبراءة سورة واحدة ، ومنهم من جعلها خمس عشرة بعد المائة بإضافة دعاء الاستغفار وهو : " اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونشي عليك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك . اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعي ونحلف . نرجو رحمتك ونخشى عذابك ، إن عذابك بالكافر ملحق . " وهو ليس من القرآن بإجماع الأمة ، وهناك من عدتها ست عشرة بعد المائة ، وعد الدعاء السابق سورتين والصحيح في ذلك أن سوره مائة وأربع عشرة سورة بإجماع من يعتد به ، وهو الصحيح المشهور بأن عدد سور القرآن كما هي في المصاحف التي بين أيدينا وهي مائة وأربع عشرة سورة .^١

فائدة تفصيل القرآن وتقطيعه سورة :

وإن قيل ما الفائدة من تفصيل القرآن وتقطيعه سورة كثيرة كما هو بين أيدينا الآن ؟

جاءت الإجابة أن الفائدة في ذلك : " إن الجنس إذا انطوت تحته أنواع وأصناف كان أحسن وأفحى من أن يكون بابا واحدا . ومنها أن القارئ إذا ختم سورة أو بابا من الكتاب ، ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأبعث على التحصل منه لو

^١) انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطى ١ / ٦٦ ، ٦٧ .

استمر على الكتاب بطوله . ومثله المسافر إذا قطع ميلاً أو فرسخاً ، وانتهى إلى رأس برية نفس ذلك منه ، ونشط للسير ؟ ومن ثم جزيء القرآن أجزاء وأحاساً . ومنها أن الحافظ إذا حدق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها ؛ فيعظم عنده ما حفظه .^١

ثانياً : في عدد آيات القرآن وكلماته وحروفه .

١ - المقصود بالآية في القرآن .

حد الآية قرآن مركب من جمل ولو تقديرًا ذو مبدأ ، أو مقطع متدرج في سورة وأصلها العلامة ، ومنه " إِنَّ آيَةً مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ " ؛ لأنها علامة للفضل والصدق أو الجماعة ؛ لأنها جماعة كلمة ، وقيل هي الواحدة من المعدودات في سور سميت به ؛ لأنها علامة على صدق من أتى بها ، وعلى عجز المتحدي بها .^٢

٢ - أما عن عدد آيات القرآن وكلماته وحروفه .

فقد اختلفت الروايات في تحديد ذلك ونورد هنا رواية عن ابن عباس في عدد الآي والحرروف ، قال : جميع آي القرآن ستة آلاف وستمائة وست عشرة آية ، وجميع حروف القرآن ثلاثة ألف حرف ، وثلاثة وعشرون ألف حرف ، وستمائة حرف واحد وسبعون حرفاً .^٣

^١) الإتقان في علوم القرآن ١ / ٦٧ .

^٢) سورة البقرة من الآية (٢٤٨) .

^٣) انظر المرجع السابق نفسه ١ / ٦٨ .

^٤) انظر المرجع نفسه ١ / ٦٩ .

" وعد قوم كلمات القرآن سبعة وسبعين ألف كلمة وتسعمائة وأربعاً وثلاثين كلمة
وقيل : وأربعمائة وسبع وثلاثون ومائتان وسبعين وسبعون وقيل : غير ذلك "

الرسم العثماني :

" وهو رسم المصحف ويراد به الوضع الذي ارتضاه عثمان رضي الله عنه في كتابة
كلمات القرآن وحروفه . والأصل في المكتوب أن يكون موافقاً تماماً لموافقة
المنطوق من غير زيادة ، ولا نقص ، ولا تبديل ، ولا تغيير . لكن المصاحف
العثمانية قد أهمل فيها هذا الأصل فوُجِدَتْ بها حروف كثيرة جاء رسمها مخالفًا
لأداء النطق ، وذلك لأغراض شريفة تظهر لك فيما بعد .

وقد عني العلماء بالكلام على رسم القرآن وحصر تلك الكلمات التي جاء خطها
على غير مقاييس لفظها . وقد أفرده بعضهم بالتأليف منهم الإمام أبو عمرو الداني
إذ ألف فيه كتابه المسمى " المقنع " . ومنهم العلامة أبو عباس المراكشي إذ ألف
كتاباً أسماه : " عنوان الدليل في رسوم خط التنزيل " . ومنهم العلامة الشيخ محمد
ابن أحمد الشهير بالمتولي إذ نظم أرجوزة سماها : " اللؤلؤ المنظوم في ذكر جملة من
الرسم " .

٢

تعريف الرسم العثماني :

وردت في اللغة العربية عدة كلمات للدلالة على تمثيل الألفاظ برموز مرئية من
أشهرها: " الكتابة، والمحاجة، والخط، والرسم، والإملاء" ولم يكن استخدام هذه
المصطلحات على حد سواء تارikhياً ويظهر أن أولها هو أقدمها ثم استعمل المحاجة
والخط في عناوين كثيرة من المؤلفات قديماً في قواعد الكتابة ومصطلحاتها، وفي وقت

^١) نفسه ١ / ٧٢ .

^٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ١ / ٣٠٠ .

متاخر استعمل مصطلح الإمام للدلالة على هذا المعنى ولا يزال هو الغالب في الاستعمال في عصرنا هذا. أما الرسم وهو ما نتناوله هنا فإن معاجم اللغة العربية لا تذكر مادته أي معنى يتعلق بالخط فهو في اللغة: بمعنى الآخر، ورسم كل شيء: أثره ومراجعة المعاجم تدل عليه. ثم أطلق هذا المصطلح على رسم المصحف أكثر من إطلاقه على رسم غيره. وربما كان استعمال الرسم للدلالة على خط المصحف إشارة إلى معنى الآخر القسم الذي يحرص المسلمون على الحفاظة عليه، فظهر مصطلح "مرسوم الخط" و"مرسوم خط المصاحف" و"الرسم".

ويراد بالرسم اصطلاحاً:

رسم المصحف: تصوير كلمة بحروف هجائها، بتقدير الابتداء بها، والوقوف عليها، لتحول اللغة المنطقية إلى آثار مرئية. أما الرسم العثماني فهو: الوضع الذي ارتضاه الصحابة في عهد عثمان ٢ في كتابة كلمات القرآن الكريم وحروفه.

عناية العلماء برسم المصحف: بلأعْتَ عناء العلماء بالقرآن الكريم أنهم درسوا الخط الذي كُتب به، والذي لا تجوز مخالفته؛ فقدّموا لنا وصفاً كاملاً عن كل حرفٍ كُتب به أثناء جمعه في مصحف واحد، وما طرأ على هذا النسخ من نقط وشكل، وغير ذلك من علامات تُعيّن على قراءته وتجويده. فما إن كتبت المصاحف بالمدينة، وأُرسِل بعضها إلى الأمسار، حتى سارع المسلمون إلى نسخ مصاحف منها كلمة بكلمة، وحرفًا بحرف.

أهم المؤلفات في رسم المصحف:

- ١- البديع في معرفة ما رسم في مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه : لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن معاذ الجهني "ت٤٢٤ هـ" تقريرًا تحقيق د. غانم قدوري الحمد ونشره في مجلة المورد م ١٥ العدد الرابع ٢٠١٤ هـ.

٢ - المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأ MCSAR: لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني "ت ٤٤٤ هـ" حقيقه الأستاذ محمد أحمد دهمان.

٣ - عقبة أتراب القصائد في أنسى المقاديد: للإمام الشاطبي "ت ٥٩٠ هـ" وهي قصيدة نظم فيها مسائل المقنع: لأبي عمرو الداني وزاد عليه ست كلمات والتي تعرف بالشاطبية.

٤ - الجامع لما يحتاج إليه من رسم المصحف: ابن وثيق الأندلسي "ت ٦٤٥ هـ" تحقيق د. غانم قدوري الحمد.

٥ - عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل: لأبي العباس أحمد ابن البناء المراكشي "ت ٧٢١ هـ" حقيقته د. هند شليبي.

نسبة الرسم لعثمان رضي الله عنه :

معلوم أن اللجنة الرباعية التي شكلها الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه في كتابة المصاحف كان لها طريقة خاصة في رسم كلمات القرآن وحروفه، اعتمدوا فيها غالباً على الرسم الذي كتبت به الصحف التي جمعت على عهد أبي بكر رضي الله عنه، والتي كانت توافق ما كتب على عهد النبي صلّى الله عليه وسلم، وقد اصطلح العلماء على تسمية الطريقة التي اتبعتها هذه اللجنة (رسم المصحف) وإنما ينسبون هذا الرسم إلى عثمان رضي الله عنه، لأنّه جرى في عهده وبأمر منه وبموافقته، فيقولون: (رسم عثمان) أو (الرسم العثماني) وأحياناً يقولون (المصحف العثماني).

وقد اتصف هذا الرسم بصفتين هما:

الصفة الأولى: أن له إملاء خاصاً به من حيث كيفية كتابة بعض الحروف والكلمات، كالمهمزة مثلاً في كتابة (مائة) والأحرف اليائية والواوية كما في كلمات

(الزكوة، والصلة، والحياة) وما شابه ذلك من الحذف أو الزيادة لبعض الحروف. وكان هذا الإملاء يتفق في جملته مع الرسم القرشي في ذلك الوقت، **الصفة الثانية:** أن هذه المصاحف كان رسماً مجرّداً عن الشكل الذي يوضح إعرابه، وعن النقط الذي يميز الأحرف المعجمة (كالزاي، وال DAL ، والغين، والجيم، والخاء) عن المهملة (كالراء، وال DAL ، والخاء) وغيرها. ولقد كان المسلمون يهتدون إلى النطق السليم بالقرآن في ذاك الوقت بوسيلتين:

الأولى: سلبيقة اللسان العربي الأصيل الذي كانوا يتمتعون به، فلم يكن اللحن ليعرف سبيلاً إلى لسانهم، كما لم يكن المعنى ليستعجم على أذهانهم.

الثانية: التلقّي والمشافهة، وقد علمنا أن المسلمين كانوا يعتمدون في أخذ القرآن وحفظه وضبطه على الكتابة والتلقّي مشافهة من أفواه الرجال، وكانوا لا يكتفون بأحد الطريقين عن الآخر، فكان التلقّي والمشافهة وسيلة لوضوح الكتابة، وعاصماً من اللبس في الكلمات التي تحتمل برسها عدداً من وجوه القراءة والأداء. وبختين الوسائلتين - السلبيقة والمشافهة - لم يكن عدم شكل رسم القرآن ونقطه عائقاً في طريق قراءته قراءة سليمة، وفهم مضمونه ومعناه فهما صحيحة.

شكل المصحف وإعجامه

الشكل: هو "وضع العلامات التي تدل على ما يعرض للحرف من حركة أو سكون".

أما الإعجام: "فخاص بيان ذات الحرف، وتمييزه عن غيره، ويكون بالنقط كالتاء عليها نقطتان، والياء تحتها نقطتان ونحو ذلك".

وكان القرآن قد كتب أولاً خالياً من الشكل والإعجام، وقد كتبه عثمان بن عفان كذلك، ولم يخش عليه من الالتباس؛ لأن العرب يدركون القرآن بسلبيقتهم، وكان

تلقيهم للقرآن عن طريق الرواية والسماع. وقد أفسدت مخالطة العرب لغيرهم هذه السليقة السليمة، وبدأ يظهر اللحن رويداً رويداً، وينتشر شيئاً فشيئاً، حتى بدا لزياد بن أبيه والي البصرة أن يضع حدّاً لهذه الظاهرة، بعد أن أشار عليه أبو الأسود الدؤلي بعد فزعه عند ما سمع رجلاً يقرأ قوله تعالى: { .. أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ .. } [التوبه: ٣]. بحر اللام في «رسوله» بدل رفعها أو نصبها، فعهد زياد لأبي الأسود أن يقوم بهذه المهمة الجليلة، والتي كانت الحاجة إليها أمس وأقوى من الحاجة إلى الإعجام، وذلك أن الخطأ في حركات الحروف أضعاف الخطأ في إعجامها، وكان الشكل في البداية بالنقط، ولما أريد وضع الإعجام بالنقط، أصبح الأمر ملتبساً في التمييز بين الشكل والإعجام، فعمدوا إلى تغيير لون النقط، ثم جعل الشكل بالطريقة المعروفة لنا الآن، وبقي الإعجام هو المختص بالنقط، وقيل: إن الذي أمر بالإعجام هو الحجاج بن يوسف، كما سبق.

طرق معرفة رسم المصحف

نقط المصحف وشكله وتجزئته:

كان زياد بن عبيد الله واليًا على البصرة سنة "٤٥٣-٤٥٤ هـ" في خلافة معاوية بن أبي سفيان ٢ وحين رأى زياد ظهور اللحن خشي أن ينال القرآن منه شيء فبعث إلى أبي الأسود الدؤلي وقال له: يا أبا الأسود إن هذه الحمراء -يعني العجم- قد كثرت، وأفسدت من ألسن العرب، فلو وضع شيء يصلح به الناس كلامهم، ويعربون به كتاب الله تعالى فأبى ذلك أبو الأسود، وكره إجابة زياد إلى ما سأله هيبة القرآن وإجلالاً أن يضع فيه ما ليس منه، حتى سمع أبو الأسود رجلاً يقرأ قوله تعالى: { أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ } [التوبه: آية ٨٣] بكسر اللام من ورسوله فاستعظم أبو الأسود ذلك وقال: عز وجه الله أن يبراً من رسوله. ثم رجع

إلى زياد وأحابه إلى طلبه ووضع علامات الإعراب . وكانت علامات الإعراب التي وضعها هي:

- ١- نقطة فوق الحرف للفتح.
- ٢- نقطة بين يدي الحرف للضمة.
- ٣- نقطة تحت الحرف للكسر.
- ٤- نقطتان للحرف المنون.

ثم وبعد أن أمن الناس من اللحن أو كادوا بعد وضع علامات الإعراب ظهر نوع آخر من الخطأ وهو التمييز بين الحروف التي تتحد صورتها بدون نقط كالباء والتاء والثاء، وكالجيم والخاء والخاء، وكالدال والذال، ونحوها وشق على السواد منهم أن يهتدوا إلى التمييز بين حروف المصحف وكلماته وهي غير معجمة. مما دعا الخليفة عبد الملك بن مروان إلى أن يأمر الحجاج بن يوسف الشفقي واليه في العراق أن يختار من العلماء من يقوم بهذا العمل. واختار الحجاج بن يوسف لهذا العمل عالمين هما:

- ١- يحيى بن يعمر العدواني ت قبل "٩٠هـ".
- ٢- نصر بن عاصم الليثي "٩٠هـ".

فقاما بإعجام الحروف بوضع النقاط المعروفة إلى يومنا هذا، ثم لئلا يقع خلط بين نقط الإعجام ونقط الإعراب قام الخليل بن أحمد "ت ١٧٥هـ" بتغيير نقط الإعراب إلى علامات الإعراب المعروفة الآن حتى لا يقع خلط بين نقط الإعراب ونقط الإعجام على النحو التالي:

- ١- "ٌ" فوق الحرف للفتح.
- ٢- "ٌ" فوق الحرف للضمة.
- ٣- "ٍ" تحت الحرف للكسر.
- ٤- "ٌ" فوق الحرف للتتشديد وهي رأس ش من شديد.

٥ - "ح" فوق الحرف للسكون وهي رأس خ من "خفيف".
ووضع الخليل أيضاً الهمزة، والتشديد، والروم، والإشمام، وهو أول من صنف في
النقط وذكر عللها.

وهكذا تتابع العلماء وازدادت عنایتهم في تحسين رسم المصحف حتى إذا كانت
نهاية القرن الثالث الهجري بلغ الرسم ذروته وتنافس العلماء في اختيار الخط،
وابتكار العلامات المميزة.

تجزئة المصحف:

ثم قام علماء الرسم بعد ذلك بتجزئة المصحف. ولعل مستند التجزئة هو تيسيره
للتلاوة والحفظ، فقاموا بتجزئة القرآن إلى ثلاثة جزءاً وقسموا الجزء إلى حزبين
والحزب إلى أربعة أرباع والربع إلى عشرين. وقاموا بوضع علامات مختلفة كالخاء فوق
كل آية خامسة أو مضاعفاتها. والعين فوق كل آيةعاشرة أو مضاعفاتها. ووضعوا
رقمًا لكل آية أو علامة على نهايتها. ووضعوا دبياجة في أول كل سورة يذكرون
فيها اسم السورة وعدد آياتها ومكية هي أو مدنية. ووضعوا بين الآيات أو فوقها
علامات الوقف بأنواعه اللازم والممنوع والجائز بأنواعه "المستوى الطرفين، والجائز
مع كون الوصل أولى، والجائز مع كون الوقف أولى" وتعانق الوقف بحيث إذا وقف
على أحدهما لم يقف على الآخر. ووضعوا علامات سجدات التلاوة وزاد بعضهم
فيذكر القائلين بالسجدة في كل موضع.

حكم الزيادات:

للعلماء في نقط المصاحف مذهبان:

١ - المنع:

ويستدلون على ذلك بأدلة منها:

١- قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن ومن كتب عنني شيئاً سوى القرآن فليمحه".

٢- ما روى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: "جردوا القرآن، ولا تخلطوه بشيء"

٣- ما روى عن الحسن وابن سيرين أهـماً كانا يكرهان نقط المصاحف .

٤- الجواز:

ويستدلون على ذلك بأدلة منها:

١- ما روى عن أئمة السلف في جوازه، فقد سُئل الحسن عن نقط المصاحف فقال: لا بأس به ما لم تبغوا" وقال ثابت بن معبد: العجم نور الكتاب، وقال الحذاء: "كنت أمسك على ابن سيرين في مصحف منقوط" وسئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن شكل القرآن في المصحف فقال: "لا بأس به". وقال الليث: "لا أرى بأساً أن ينقط المصحف بالعربية". وقال الإمام مالك: "أما هذه المصاحف الصغار فلا أرى بأساً وأما الأمهات فلا".

والراجح: هو جواز ذلك لأن النقط لا ينافي الأمر بالتجريد، ولأنه - كما قال الحليمي - ليس له صورة فيتوهم لأجلها ما ليس بقرآن قرآن، وإنما هي دلالات على هيئة المقروء فلا يضر إثباتها من يحتاج إليها" وقال النwoي رحمه الله تعالى: "قال العلماء: ويستحب نقط المصحف وشكله، فإنه صيانة من اللحن فيه والتصحيف" وقال: "وأما كراهة الشعبي والنخعي النقط فإنما كرهاه في ذلك الزمان خوفاً من التغيير فيه، وقد أُمن ذلك اليوم فلا منع، ولا يمتنع من ذلك لكونه محدثاً فإنه من المحدثات الحسنة فلم يمنع منه".

حكم التجزئة وعلامات الوقف:

والخلاف في حكمها أقوى من الخلاف في النقط، فقلت طائفة: بالمنع، والمنع فيه أظهر من المنع في النقط. فقد روى عن النجاشي كراهة النقط والعواشر والفوائح وتصغير المصحف وأن يكتب فيه سورة كذا وكذا، وروى عنه أنه أتى بمصحف مكتوب فيه سورة كذا وكذا آية فقال: امح هذا فإن ابن مسعود كان يكره هذا وعن ابن سيرين أنه كان يكره أن يكتب في المصاحف هذه العواشر والفوائح وعن أبي العالية أنه كان يكره الجمل في المصحف وفاتحة سورة كذا . وقال البيهقي: من آداب القرآن أن يفخم فيكتب مفرجاً بأحسن خط فلا يصغر ولا تقرمه حروفه، ولا يخلط به ما ليس منه كعدد الآيات والسجادات والعشرات، والوقوف، واختلاف القراءات، ومعاني الآيات". وقالت طائفة بالجواز: معللين ذلك بأمن اللبس، وتحقق الفائدة، وأن الخلط بين النص القرآني وهذه المصطلحات بعيد كل البعد. والراجح: أن الحق وسط بين الإفراط والتفريط.

طباعة المصحف:

ظهرت آلات الطباعة وببدأ استعمالها سنة "٤٣١ هـ - ١٨٣٥ م" في البلاد الأوروبية ولا شك أن للطباعة أثراً كبيراً في انتشار المطبوعات. وكانت الطباعة في بدايتها تقوم على تنضيد الحروف وليس على تصوير المكتوب، لذا فقد كانت الطباعة في تلك الفترة على الرسم الإمامي لتعذر الالتزام بالرسم العثماني. وظهرت أول طبعة للقرآن الكريم في البندقية في إيطاليا في حدود سنة "١٥٣٠ م" ولكن السلطات الكنسية أصدرت أمراً بإعدامه حال ظهوره. أما في العالم الإسلامي فقد ظهرت أول طبعة إسلامية للقرآن في سانت بطرسبرغ في روسيا سنة "١٢٠١ هـ - ١٧٨٧ م" وهي التي قام بها مولاي عثمان.

وكتب الشيخ رضوان بن محمد الشهير بالمخلاطي مصحفاً اعني فيه بكتابه الكلمات القرآنية على قواعد الرسم القرآني وأضاف إليها بعض الإفادات المتعلقة بالعد والوقف وتحrir الرسم والضبط وتاريخ كتابة القرآن وغير ذلك وطبع هذا المصحف في المطبعة البهية في القاهرة سنة "١٣٠٨ هـ - ١٨٩٠ م". قال الشيخ عبد الفتاح القاضي: "وكان هذا المصحف هو المتداول بين أهل العلم والقراء.. المعول عليه عندهم المقدم دون سائر المصاحف لما اشتمل عليه من المزايا السابقة بيد أنه لم يبرز في صورة حسنة تروق الناظر وتنشط القارئ لرداعه ورقه، وسوء طبعه إذ إنه طبع في مطبعة حجرية". ثم أصدر الملك فؤاد الأول أمره إلى مشيخة الأزهر بتشكيل لجنة من العلماء للإشراف على طبع مصحف، وقد تم تشكيل لجنة قامت بكتابة القرآن كله حسب قواعد الرسم العثماني، وضبطوه الضبط التام على ما ذهب إليه الحفظون من العلماء وأضافوا إليه عدد الآي في كل سورة وأنها مكية أو مدنية وأنها نزلت بعد سورة كذا، ورقموا الآيات، وعلامات الوقف، والأجزاء والأحزاب والأرباع، والسجادات، وقد كتب هذا المصحف بخط أحد أعضاء اللجنة وهو الشيخ محمد بن علي بن خلف الحسيني الحداد "ت ١٣٥٧ هـ" شيخ المقارئ المصرية حينئذ وانتهت اللجنة من أعمالها عام "١٣٣٧ هـ" فأمر الملك فؤاد بطبعه فطبع سنة "١٣٤٢ هـ - ١٩٢٣ م" ويعرف هذا المصحف بـ"المصحف الملكي" ثم أعيد طبعه بعد ذلك عدة مرات وفاقت هذه الطبعة كافة الطبعات في الشهرة والقبول، ثم توالت الطبعات التجارية في مختلف بلدان العالم الإسلامي وغير التجارية وأصبح عرضة لإهمال الطابعين وتساهل الناشرين عن العناية بتصحيحه ومراجعته توفيراً لتكليف طبعه.

قواعد رسم المصحف:

وللمصحف العثماني قواعد في خطه ورسمه حصرها علماء الفن في ست قواعد وهي الحذف ، والريادة ، والهمز ، والبدل ، والفصل والوصل ، وما فيه قراءتان فقرئ على إحداهما . وفيما يلي ذكر هذه القواعد بشيء من التفصيل .

أولاً : قاعدة الحذف :

تحذف الألف من ياء النداء نحو قوله تعالى : " يَأْيُهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ " ^١ " وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبٌ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا " ، فقوله تعالى : " يَأْيُهَا " أصلها يا أيها وحذفت الألف في خط المصحف ووضع بدلا منها ألفا صغيرة بين الياء والهمزة لا يكتبها جهاز الحاسوب . وكذلك تحذف ألف هاء التنبية نحو قوله تعالى " هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلَهَةً " فكلمة هؤلاء مكونة من ها التنبه وأولاء للإشارة فحذفت ألف ها التنبية في خط المصحف . وألف نا مع ضمير أنجینكم نحو قوله تعالى : " يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوّكُمْ " فقوله تعالى : " أَنْجَيْنَاكُمْ " أصلها في الخط أنجيناكم وحذفت ألف نا في خط المصحف . ومن ذلك كلمات: أولئك ، ولكن ، و تبرك ، و الله ، و إله ، و الرحمن ، و سبحان إلا في قوله تعالى : " فَلْنَ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا " ففي كل الكلمات السابقة تحذف الألف من خط المصحف إلا في قوله

^١ سورة البقرة من الآية (٢١) .

^٢ سورة الفرقان الآية (٣٠) .

^٣ سورة الكهف من الآية (١٥) .

^٤ سورة طه من الآية (٨٠) .

^٥ سورة الإسراء من الآية (٩٣) .

تعالى : " قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا " فلا تمحف ألف سبحان من خط المصحف .

وتحذف ألف إذا جاءت بعد لام مثل خلاف في قوله تعالى : " ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَ فِي الْأَرْضِ " فمحفف ألف بعد الام في قوله خلاف .

وبين لامين نحو " الكللة " فأصلها " الكلاة " ، و " الضلة " أصلها الضلاة .

ومن كل علم زائد على ثلاثة كإبراهيم وأصله إبراهيم ، وصلاح وأصله صالح إلا حاليات وطالوت وهامان ويأجوج ومأجوج وداود لمحفف واوه وإسرائيل لمحفف يائه واختلف في هاروت وماروت وقارون .

ومن كل مثنى اسم أو فعل إن لم يتطرف نحو رجلن يعلم أن أصلنا إن هذان إلا بما
قدمت يداك

ومن كل جمع تصحيح لمذكر أو مؤنث نحو " اللعنون " أصلها اللاعنون ،
إلا طاغون في الذاريات والطور ، وكrama كاتبين ، وإلا روؤسات في الشورى و آيات
للسائلين ، و مكر في آياتنا ، و آياتنا بيات في يونس ، وإلا إن تلاها همزة نحو
الصائمين والصائمات ، أو تشديد نحو الصالين و الصافات . ويشد عن ذلك
٢ حذف ألف من كل مثنى نحو " رَجُلَانِ " ومن كل جمع على وزن مفاعل وشبيه نحو
نحو " سَمَاعُونَ " ، " الْمُؤْمِنَاتِ " ومن كل جمع على وزن مفاعل وشبيه نحو
" الْمَسَاجِدِ " ، " وَالنَّصَارَى " ومن كل عدد نحو " ثَلَاثَ " . وتحذف من البسمة
ومن أول الأمر من سأل وغير ذلك .

وتحذف الياء من كل منقوص متون رفعا وجرا نحو " غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ " .

^١ سورة يونس من الآية (١٤) .

^٢ انظر البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٨٨ : ٣٩٨ .

ومن هذه الكلمات " وَأَطِيعُونِ ، وَأَتَّقُونِ ، وَخَافُونِ ، فَارْهَبُونِ ، فَأَرْسَلُونِ ، فَاعْبُدُونِ " وتحذف الواو: إذا وقعت مع واو أخرى في نحو: " لَا يَسْتَوْنَ " ، " فَأُولُوا إِلَى الْكَهْفِ " .

وهناك حذف لا يدخل تحت قاعدة كحذف الألف من كلمة مالك وكحذف الياء من إبراهيم وكحذف الواو من هذه الأفعال الأربع: " وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءً بِالْخَيْرِ " فأصل يدع يدعو وحذف منه الواو في خط المصحف ، وقوله تعالى : " وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحَقِّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ " فيمح أصلها يمحو وحذفت الواو من خط المصحف وكذلك في قوله تعالى : " يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكَرٍ " ، وفي قوله تعالى : " سَنَدْعُ الرَّبَّانِيَّةَ " .

القاعدة الثانية : قاعدة الزيادة .

زيدت ألف بعد الواو آخر اسم مجتمع نحو " بنوا إسرائيل " ، " ملاقوا رحهم " ، " أولوا الألباب " .

بخلاف المفرد نحو قوله تعالى : " لذو علم " .

وآخر فعل مفرد أو جمع مرفوع أو منصوب إلا جاءو، و باعو ، و عتو عتوا ، فإن فاؤ ، والذين تبوؤ الدار ، " عسى الله أن يغفو عنهم " في النساء و " سعو في آياتنا" في سبأ

^١ سورة الإسراء من الآية (١١) .

^٢ سورة الشورى من الآية (٢٤) .

^٣ سورة القمر من الآية (٦) .

^٤ سورة العلق الآية (١٨) .

^٥ انظر مداخل العرفان في علوم القرآن ١ / ٣٠١ .

وبعد المهمزة المرسومة واوا نحو " تفتئا" وفي " مائة ومائتين" و " الظنونا" و " الرسولا" و " السبيلا" .

وبين الياء والجيم في " جايء" في الزمر والفجر ، كتبت " ابن" بالهمزة مطلقا وزيدت ياء في " نبائ المسلمين" و " ملإيه" ، " ملإيهم" ، و " من آنائي الليل" في طه و " من تلقائي نفسي" و " من ورائي حجاب" في الشورى وغيرها . وزيدت واو في " أولوا" وفروعه ، و " سأوريكم" .

قال المراكشي : وإنما زيدت هذه الأحرف في هذه الكلمات نحو جايء و نبائ ونحوهما للتهويل والتخفيم والتهديد والوعيد كما زيدت في بأيد تعظيمها لقوة الله تعالى التي بني بها السماء التي لا تشبهها قوة .^١

القاعدة الثالثة : قاعدة الهمز

يكتب الساكن بحرف حركة ما قبله أولاً أو وسطاً أو آخرها نحو " إئذن ، وأؤمن والبأساء ، واقرأ ، وجئناك ، وهيء ، والمؤتون ، و تسؤهم إلا فادارءتم ، و رعيا ، و الرعيا ، و شطئه فحذف فيها ، وكذا أول الأمر بعد فاء نحو" فأتوا ، أو واو نحو " وأتمروا" ، والمتحرك إن كان أولاً ، أو اتصل به حرف زائد بالألف مطلقا نحو " أليوب" ، و " سأصرف" ، و " فبأي" ، " سأنزل" إلا موضع " أئنكم لتشهدون" ، و " أئنكم لتأتون" في النمل والعنكبوت " ، و " أئذا متنا" ، و " أئن ذكرتم" ، و " أئفكا" ، و " أئمة" ، و " لثلا" ، و " لئن" ، و " يومئذ" و " حينئذ" فتكتب فيها بالياء إلا " قل أئنكم" ، و " هؤلاء" فتكتب بالواو

^١ انظر الاتقان في علوم القرآن ٢ / ١٦٨ .

وإن كان وسطاً في حرف حركته نحو "سأل" ، و "نقرؤه" إلا "جزاؤه" الثلاثة في يوسف ، و "لأمئن" ، و "وامتلئت" ، و "اشعّرت" ، و "اطمئنوا" فحذف فيها .

وإن كان ما قبله ساكناً حذف هو نحو "يسئل" ، و "لا تجئوا" ، إلا "النشأة" ، و "موئلاً" في الكهف .

وإن كان آخراً في حرف حركة ما قبله نحو "سبأ" ، "شاطئ" ، "لؤلؤ" إلا في مواضع "تفتئوا" ، و "يتفيئوا" ، "أتوكؤوا" ، و "لا تظمئوا" ، و "ما يبعئوا" إلى آخر ...

القاعدة الرابعة : قاعدة البدل .

ويكتب بالواو للتفخيم ألف مثل قوله : "الصلوة" ، و "الزكوة" ، و "الحياة" و "الريوا" غير مضادات .

وبالياء كل ألف منقلبة عنها نحو : "يتو Vickum" في اسم أو فعل اتصل به ضمير أو لا ، لقى ساكناً أم لا .

ومنه : "يا حسرتي" ، "يأسفي" ويستثنى منه "تترا" ، و "كلتا" ، و "هداني" ، و "من عصاني" ، و "الأقصاص" ، و "أقصاص المدينة" ، و "من تولاه" ، و "طغا الماء" ، و "سيماهم" .

ويستثنى من ذلك ما قبلها ياء كالدانيا والحوايا إلا يحيى اسماء ، أو فعلاء ويكتب بها إلى وعلى وأنى بمعنى كيف ومتى وبلى وحتى ويستثنى منه "لدا الباب" .

ويكتب بالألف الثلاثي الواوي اسماء أو فعلاء نحو "الصفا" ، و "شفا" .

و "عفا" ويستثنى من ذلك "ضحي" ، و "ما زكي منكم" ، و "دحيها" ،
١
و "تليها" .

القاعدة الخامسة : قاعدة الوصل والفصل .

" خلاصتها أن كلمة أن بفتح المهمزة توصل بكلمة لا إذا وقعت بعدها. ويستثنى من ذلك عشرة مواضع. منها: "أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ" ، قوله تعالى : "أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ" .
٢

وكلمة من توصل بكلمة ما إذا وقعت بعدها . ويستثنى "مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ" في النساء والروم و "مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ" في سورة المنافقين. وكلمة من توصل بكلمة من مطلقا. وكلمة عن توصل بكلمة ما . إلا قوله سبحانه "عَنْ مَا نُهُوا
٦
عَنْهُ" .

وكلمة إن بالكسر توصل بكلمة ما التي بعدها إلا قوله سبحانه: "وَإِنْ مَا
٧
نُرِيَنَّكَ" .

وكلمة أن بالفتح توصل بكلمة ما مطلقا من غير استثناء. وكلمة كل توصل بكلمة ما التي بعدها إلا قوله سبحانه : "كُلَّ مَا رُدُوا إِلَى الْفِتْنَةِ" ، قوله تعالى :
٨

^١) انظر الإتقان في علوم القرآن ٢ / ١٦٨ ، ١٦٩ .

^٢) سورة الأعراف من الآية (١٦٩) .

^٣) سورة هود من الآية (٢٦) .

^٤) سورة الروم من الآية (٢٨) .

^٥) سورة المنافقين من الآية (١٠) .

^٦) سورة الأعراف من الآية (١٦٦) .

^٧) سورة الرعد من الآية (٤٠) .

^٨) سورة النساء من الآية (٩١) .

^١ " مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ " .

^٢ وتوصل كلمات "نعمًا، وربما، وكأنما، ويكانه" ونحوها.

القاعدة السادسة : قاعدة فيما فيه قراءتان فكتب على إحداهما .

خلاصتها أن الكلمة إذا قرئت على وجهين تكتب برسم أحدهما كما رسمت الكلمات الآتية بلا ألف في المصحف وهي: " مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ " ، و قوله تعالى " يُخَادِعُونَ اللَّهَ " ، و قوله تعالى : " وَوَاعَدْنَا مُوسَى " ونحوها وكلها مقروءة بإثبات الألف وحذفها. وكذلك رسمت الكلمات الآتية بالباء المفتوحة وهي غيابة الجب أنزل عليه آية في العنكبوت ثرة من أكمامها في فصلت وهم في الغرفة آمنون في سباً. وذلك لأنها جماء مقروءة بالجمع والإفراد. وغير هذا كثير وحسبنا ما ذكرناه للتمثيل والتنوير.

مزايا الرسم العثماني:

لهذا الرسم مزايا وفوائد:

الفائدة الأولى:

^١ سورة إبراهيم من الآية (٣٤) .

^٢ منهال العرفان في علوم القرآن ١ / ٣٠٥ .

^٣ سورة الفاتحة الآية (٤) .

^٤ سورة البقرة من الآية (٩) ، وسورة النساء من الآية (١٤٢) .

^٥ سورة الأعراف من الآية (١٤٢) .

^٦ منهال العرفان في علوم القرآن ١ / ٣٠٥ .

"الدلالة في القراءات المتنوعة في الكلمة الواحدة بقدر الإمكان ؛ وذلك أن قاعدة الرسم لوحظ فيها أن الكلمة إذا كان فيها قراءتان ، أو أكثر كتبت بصورة تحتمل هاتين القراءتين ، أو الأكثر. فإن كان الحرف الواحد لا يحتمل ذلك بأن كانت صورة الحرف تختلف باختلاف القراءات جاء الرسم على الحرف الذي هو خالف الأصل ؛ وذلك ليعلم جواز القراءة به وبالحرف الذي هو الأصل. وإذا لم يكن في الكلمة إلا قراءة واحدة بحرف الأصل رسمت به. مثال الكلمة تكتب بصورة واحدة وتقرأ بوجوه متعددة قوله تعالى: "إِنْ هَذَا نَسَاحِرَانِ" رسمت في المصحف ^١ العثماني هكذا: "إن هدان لساحران" من غير نقط ، ولا شكل ، ولا تشديد ، ولا تخفيف في نوني إن وهدان ، ومن غير ألف ، ولا ياء بعد الذال من هدان. وبحيء الرسم كما ترى كان صالحًا عندهم لأن يقرأ بالوجوه الأربع التي وردت كلها بأسانيد صحيحة .

- أولها: قراءة نافع ومن معه إذ يشددون نون إن ويخففون هدان بالألف .
- ثانية: قراءة ابن كثير وحده إذ يخفف النون في إن ويشدد النون في هدان.
- ثالثها: قراءة حفص إذ يخفف النون في إن وهدان بالألف .
- رابعها: قراءة أبي عمرو بتشدید إن وبالباء وتخفيف النون في هذين .

الفائدة الثانية:

"إفادة المعاني المختلفة بطريقة تقاد تكون ظاهرة وذلك نحو قطع الكلمة أم في قوله تعالى: "أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا" ووصلها في قوله تعالى: "أَمْنٌ يَمْشِي سَوِيًّا

^١ سورة طه من الآية (٦٣) .

^٢ مناهل العرفان في علوم القرآن ١ / ٣٠٦ .

عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ " إذ كتبت هكذا أمن^١ بإدغام الميم الأولى في الثانية وكتابتها ميما واحدة مشددة فقط أم الأولى في الكتابة للدلالة على أنها أم المنقطعة التي يعني بل ، ووصل أم الثانية للدلالة على أنها ليست كتلك .

الفائدة الثالثة:

الدلالة على معنى خفي دقيق كزيادة الياء في كتابة كلمة أيد من قوله تعالى: **"وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍِ"** إذ كتبت هكذا " بِأَيْدٍِ"^٢ وذلك للإيماء إلى تعظيم قوة الله التي بني بها السماء ، وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة وهي: زيادة المبني تدل على زيادة المعنى .

ومن هذا القبيل كتابة هذه الأفعال الأربع بحذف الواو وهي:

ويدعوا الإنسان ، ويمحو الله الباطل ، يوم يدعوا الداع ، سندعوا الزيانية ؛ فإنها كتبت في المصحف العثماني هكذا: " وَيَدْعُ الْأَنْسَانُ، وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ، يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ، سَنَدْعُ الزَّيَانَيَّةَ" ولكن من غير نقط ولا شكل في الجميع.

قالوا: والسر في حذفها من " وَيَدْعُ الْأَنْسَانُ" هو الدلاله على أن هذا الدعاء سهل على الإنسان يسارع فيه كما يسارع إلى الخير ؛ بل إثبات الشر إليه من جهة ذاته أقرب إليه من الخير. والسر في حذفها من " وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ" الإشارة إلى سرعة ذهابه واضمحلاله .

^١) سورة النساء من الآية (٩) .

^٢) سورة الملك من الآية (٢٢) .

^٣) سورة الذاريات من الآية (٤٧) .

والسر في حذفها من "يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ" الإشارة إلى سرعة الدعاء ، وسرعة إجابة الداعين. والسر في حذفها من "سَنْدُغُ الزَّبَانِيَّةَ" الإشارة إلى سرعة الفعل ، وإجابة الزبانية ، وقوة البطش ، ويجمع هذه الأسرار قول المراكشي:
والسر في حذفها من هذه الأربعة سرعة وقوع الفعل ، وسهولته على الفاعل ،
وشدة قبول المنفعل المتأثر به في الوجود .^١

الفائدة الرابعة:

"الدلالة على أصل الحركة مثل كتابة الكسرة ياء في قوله سبحانه : "وَإِيتَاءٌ ذِي الْقُرْبَى" إذ تكتب هكذا "إيتاءٌ ذي القربي" ، ومثل كتابة الضمة واوا في قوله سبحانه: "سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ" إذ كتبت هكذا "سأوريكم" ، ومثل ذلك الدلالة على أصل الحرف نحو : الصلاة ، والركاوة إذ كتبها هكذا: "الصلوة ، الركوة" ليفهم أن الألف فيها منقلبة عن واو. من غير نقط ولا شكل كما سبق.

الفائدة الخامسة:

إفاده بعض اللغات الفصيحة مثل كتابة هاء التأنيث تاء مفتوحة دلالة على لغة طيء ، وقد تقدمت الأمثلة لهذا النوع ، ومثل قوله سبحانه: "يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ" كتبت بحذف الياء هكذا يأت للدلالة على لغة هذيل.

الفائدة السادسة:

^١ مناهل العرفان في علوم القرآن ١ / ٣٠٧ .

^٢ سورة النحل من الآية (٩٠) .

^٣ سورة الأعراف من الآية (١٤٥) .

^٤ سورة هود من الآية (١٠٥) .

" حمل الناس على أن يتلقوا القرآن من صدور ثقات الرجال ، ولا يتكلوا على هذا الرسم العثماني الذي جاء غير مطابق للنطق الصحيح في الجملة . وينضوي تحت هذه الفائدة مزيتان : إحداهما التوثق من ألفاظ القرآن ، وطريقة أدائه ، وحسن ترتيله وتحويده. فإن ذلك لا يمكن أن يعرف على وجه اليقين من المصحف مهما تكن قاعدة رسمه ، واصطلاح كتابته. فقد تخطئ المطبعة في الطبع وقد يخفي على القارئ بعض أحكام تحويده كالقلقلة ، والإظهار ، والإخفاء ، والإدغام ، والروم والإشمام ، ونحوها فضلا عن خفاء تطبيقها.

ولهذا قرر العلماء أنه لا يجوز التعويل على المصحف وحدها. بل لا بد من التثبت في الأداء ، القراءة بالأخذ عن حافظ ثقة. وإن كنت في شك فقل لي بربك: هل يستطيع المصحف وحده بأي رسم يكون أن يدل قارئاً أيا كان على النطق الصحيح بفواتح سور الكريمة؟ مثل " كهيعص، حم، عسق طسم "؟ ومن هذا الباب الروم والإشمام في قوله سبحانه " مَا لَكَ لَا تَأْمُنَّا عَلَى يُوسُفَ " من كلمة " لا تَأْمَنَّا ".^١

المزية الثانية : اتصال السندي برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلك خاصة من خواص هذه الأمة الإسلامية امتازت بها على سائر الأمم.

قال ابن حزم: نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم مع الاتصال خص الله به المسلمين دون سائر الملل. وأما مع الإرسال ، والإعصار فيوجد في كثير من كتب اليهود ، ولكن لا يقررون فيه من موسى فربنا من محمد صلى الله عليه وسلم. بل يقفون بحيث يكون بينهم وبين موسى أكثر من ثلاثين عصرًا. إنما

^١ سورة يوسف من الآية (١١) .

يبلغون إلى شعون ونحوه. ثم قال: وأما النصارى فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطلاق. وأما النقل المشتمل على طريق فيه كذاب أو مجهول العين فكثير في نقل اليهود والنصارى. وأما أقوال الصحابة والتابعين فلا يمكن اليهود أن يبلغوا صاحب النبي ، أو تابعي ، ولا يمكن النصارى أن يصلوا إلى أعلى من شعون وبولص. " ١

هل رسم المصحف توقيفي؟

للعلماء في رسم المصحف آراء ثلاثة:

الرأي الأول :

"إنه توقيفي لا تجوز مخالفته. وذلك مذهب الجمهور. واستدلوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان له كتاب يكتبون الوحي ، وقد كتبوا القرآن فعلاً بهذا الرسم ، وأقرهم الرسول على كتابتهم ، ومضى عهده صلى الله عليه وسلم والقرآن على هذه الكتابة لم يحدث فيه تغيير ولا تبدل. بل ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان يضع الدستور لكتاب الوحي في رسم القرآن وكتابته. ومن ذلك قوله معاوية وهو من كتبة الوحي: "ألق الدواة وحرف القلم وأنصب الباء ، وفرق السين ولا تغور الميم ، وحسن الله ، ومد الرحمن ، وجود الرحيم ، وضع قلمك على أذنك اليسرى فإنه أذكر لك" ."

ثم جاء أبو بكر فكتب القرآن بهذا الرسم في صحف ، ثم حدا حذوه عثمان في خلافته ، فاستنسخ تلك الصحف في مصاحف على تلك الكتبة ، وأقر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عمل أبي بكر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين ، وانتهى

١) منهال العرفان في علوم القرآن ١ / ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

الأمر بعد ذلك إلى التابعين ، وتابعـيـ التابعـين فـلم يـخـالـف أحـدـهـمـ فيـ هـذـاـ الرـسـمـ .
ولـمـ يـنـقلـ أـحـدـاـ مـنـهـمـ فـكـرـ أـنـ يـسـتـبـدـلـ بـهـ رـسـماـ آـخـرـ مـنـ الرـسـوـمـ الـتـيـ حدـثـتـ فيـ
عـهـدـ اـزـهـارـ التـأـلـيـفـ ، وـنـشـاطـ التـدـوـينـ وـتـقـدـمـ الـعـلـوـمـ . بلـ بـقـيـ الرـسـمـ العـشـمـانـيـ
محـتـرـمـاـ مـتـبـعاـ فيـ كـتـابـةـ المـصـاحـفـ لـاـ يـمـسـ اـسـتـقـلـالـهـ وـلـاـ يـبـاـحـ حـمـاهـ .

وملخص هذا الدليل أن رسم المصاحف العثمانية ظفر بأمور كل واحد منها يجعله حديراً بالتقدير ووجوب الاتباع . تلك الأمور هي إقرار الرسول صلى الله عليه وسلم عليه وأمره بدسستوره . وإجماع الصحابة و ، كانوا أكثر من اثني عشر ألف صحابي عليه ، ثم إجماع الأمة عليه بعد ذلك في عهد التابعين والأئمة المجتهدين .

وأنت خبير بأن اتباع الرسول واجب فيما أمر به أو أقر عليه لقوله تعالى: " قُلْ إِنْ كُتُمْ تُحْجُونَ اللَّهَ فَاتَّعُونِي يُخْبِكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ " والاهتداء بهدى الصحابة واجب خصوصاً الخلفاء الراشدين ؟ لحديث العرياض بن سارية وفيه يقول صلى الله عليه وسلم: "إِنَّمَا مَنْ يَعْمَلُ مِنْكُمْ فَسِيرِي اخْتَلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسْنَتِي وَسَنَةِ الْخَلْفَاءِ الرَّاشِدِينَ مَنْ بَعْدِي عَضُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ" ولا ريب أن إجماع الأمة في أي عصر واجب الاتباع خصوصاً العصر الأول. قال تعالى: " وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبَعُ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلََّ وَنُصْلِلُهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا " .

ومن حکی إجماع الأمة على ما كتب عثمان صاحب المقنع ، إذ يروی بإسناده إلى مصعب بن سعد قال: أدرك الناس حين شقق عثمان رضي الله عنه المصاحف فأعجبهم ذلك ، ولم يعبه أحد . وكذلك يروی شارح العقيلة عن أنس بن مالك

^١) سورة آل عمران من الآية (٣١) .

١١٥) سورة النساء الآية (

رضي الله عنه أن عثمان أرسل إلى كل جند من أجناد المسلمين مصحفا ، وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف الذي أرسل إليهم. ولم يعرف أن أحدا خالفا في رسم هذه المصاحف العثمانية.

واعقاد الإجماع على تلك المصطلحات في رسم المصحف دليل على أنه لا يجوز العدول عنها إلى غيرها.

الرأي الثاني:

أن رسم المصاحف اصطلاحي لا توفيقي وعليه فتحوز مخالفته. ومن جنح إلى هذا الرأي ابن خلدون في مقدمته. ومن تحمس له القاضي أبو بكر في الانتصار إذ يقول ما نصه: " وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً إذ لم يأخذ على كتاب القرآن ، وخطاط المصاحف ر بما بعينه دون غيره أوجبه عليهم ، وترك ما عداه إذ وجوب ذلك لا يدرك إلا بالسمع والتوفيق ."

وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن ، وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص ، وحد محدود لا يجوز تجاوزه ، ولا في نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه ، ولا في إجماع الأمة ما يوجب ذلك ، ولا دلت عليه القياسات الشرعية. بل السنة دلت على جواز رسمه بأي وجه سهل ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجها معينا ، ولا نهى أحدا عن كتابته. ولذلك اختلفت خطوط المصاحف فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ ومنهم من كان يزيد ، وينقص لعلمه بأن ذلك اصطلاح ، وأن الناس لا يخفى عليهم الحال. ولأجل هذا بعينه حاز أن يكتب بالحروف الكوفية ، والخط الأول وأن يجعل اللام على صورة الكاف ، وأن تعوج الألفات ، وأن يكتب على غير

هذه الوجوه ، وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين ، وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء الحديثة ، وجاز أن يكتب بين ذلك.

وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغيرة الصورة ، وكان الناس قد أجازوا ذلك ، وأجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته ، وما هو أسهل وأشهر وأولى من غير تأثير ، ولا تناكر علم أنه لم يؤخذ في ذلك على الناس حد محدود مخصوص كما أخذ عليهم في القراءة والأذان. والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري بجري الإشارات والعقود والرموز ، فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكاتب به على أي صورة كانت.

ولقد رد هذا الرأي من الوجوه الآتية :

أولاً : بالأدلة التي ساقها جمهور العلماء لتأييد مذهبهم. وقد تم ذكرها في الرأي الأول بعضها من السنة ، وبعضها من إجماع الصحابة والتابعين وتابعهم.

ثانياً : أن ما ادعاه من أنه ليس في نصوص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه مردود بما سبق من إقرار الرسول كتاب الوحي على هذا الرسم ، ومنهم زيد بن ثابت الذي كتب المصحف لأبي بكر و، كتب المصاحف لعثمان ، والحديث الأنف وفيه يقول الرسول معاوية: "ألق الدواة وحرف القلم" الخ. فإنه حجة على أنه صلى الله عليه وسلم كان واضح دستور الرسم لهم.

ثالثاً : أن قول القاضي أبي بكر: ولذلك اختلفت خطوط المصاحف الخ لا يسلم له بعد قيام الإجماع وانعقاده ومعرفة الناس بالرسم التوقيفي وهو رسم عثمان على ما قرروه هناك.

الرأي الثالث:

ييل صاحب البيان ، ومن قبله صاحب البرهان إلى ما يفهم من كلام العز بن عبد السلام من أنه يجوز ، بل تجب كتابة المصحف الآن لعامة الناس على الاصطلاحات المعروفة الشائعة عندهم ، ولا تجوز كتابته لهم بالرسم العثماني الأول لئلا يقع في تغيير من الجهل. ولكن يجب في الوقت نفسه المحافظة على الرسم العثماني كأثر من الآثار النفيسة الموروثة عن سلفنا الصالح ، فلا يهمل مراعاة لجهل الجاهلين ؛ بل يبقى في أيدي العارفين الذي لا تخلو منهم الأرض.

وهذا الرأي يقوم على رعاية الاحتياط للقرآن من ناحيتين: ناحية كتابته في كل عصر بالرسم المعروف فيه بإبعاداً للناس عن اللبس ، والخلط في القرآن ، وناحية إبقاء رسمه الأول المؤثر يقرؤه العارفون ، ومن لا يخشي عليهم الالتباس. ولا شك

أن الاحتياط مطلب ديني جليل خصوصاً في جانب حماية التنزيل.^١"

١

^١) مناهل العرفان في علوم القرآن ١ / ٣١٠ : ٣١٦ .

المبحث الرابع
الفواصل القرآنية

المعنى اللغوي للفواصل :

الفواصل جمع فاصلة وهي من الفعل فَصَلْ ومصدرها فَصَلْ و " الفَصْل بِؤْنُ ما بين الشيئين الفَصْل الحاجز بين الشيئين فَصَلْ بينهما يفصِّل فَصْلًا فانفصَل ، وفَصَلت الشيء فانصَل أَي قطعته ، فانقطع . والفاصلة الحَرْزَة التي تفصل بين الحَرْزَتَين في النُّظَام " فالفاصلة هي التي تفصل الشيء عن نظيره وفي القرآن هي التي تفصل الآية عن الأخرى .

المعنى الاصطلاحي للفاصلة :

" وهي كلمة آخر الآية كافية الشعر ، وقرينة السجع وقال الداني: كلمة آخر الجملة ، وقال القاضي أبو بكر: الفواصل حروف متتشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعانى... وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها ، وهي الطريقة التي يبادر القرآن بها سائر الكلام ، وتسمى فواصل ؛ لأنها ينفصل عندها الكلامان ، وذلك أن آخر الآية قد فصل بينها ، وبين ما بعدها . تقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها وهي الطريقة التي يبادر القرآن بها سائر الكلام ، وتسمى فواصل ؛ لأنها ينفصل عندها الكلامان وذلك أن آخر الآية قد فصل بينها وبين ما بعدها "

هل الفوائل في القرآن سجع أم لا ؟

اختلف العلماء في فوائل القرآن هل هي من السجع أم ليست من السجع في شيء؟

يرى الباقياني أن فوائل القرآن ليست من السجع في شيء ، حيث وضع فصل في كتابه إعجاز القرآن تحت عنوان نفي السجع من القرآن يقول فيه : " ذهب أصحابنا كلهم إلى نفي السجع من القرآن ، وذكره الشيخ أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه في غير موضع من كتبه ". ثم ذكر رأي المخالفين بعد ذلك ، والذين يقولون بوجود السجع في القرآن والفوائل من السجع حيث قال : " وذهب كثير من يخالفهم إلى إثبات السجع في القرآن ، وزعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام ، وأنه من الأجناس التي يقع فيها التفاضل في البيان ، والفصاحة ، وما أشبه ذلك من الوجوه التي تعرف بها الفصاحة . وأقوى ما يستدلون به عليه اتفاق الكل على أن موسى أفضل من هرون عليهما السلام ، ولمكان السجع قيل في موضع : هرون وموسى ، وما كانت الفوائل في موضع آخر باللواو والنون قيل: موسى وهرون .

قالوا وهذا يفارق أمر الشعر ؛ لأنه لا يجوز أن يقع في الخطاب إلا مقصوداً إليه وإذا وقع غير مقصود إليه كان دون القدر الذي نسميه شعراً .

^١) إعجاز القرآن للباقياني ٥٧ .

ويبينون الأمر في ذلك على تحديد معنى السجع قال أهل اللغة : هو موالاة الكلام على وزن واحد ، وقال ابن دريد : سجع الحمام معناه رددت صوتكا وأنشد طربت فأبكتك الحمام السواجع ... تميل بها ضحوا غصون نوعاً .

النوع المωائل من قولهم جائع نائع أي متمايل ضعفاً . " ثم يرد هذا الرأي ويفند^١ ما فيه من خطأ ، مثبتاً خلو القرآن من السجع فيقول : " وهذا الذي يزعمونه غير صحيح ، ولو كان القرآن سجعاً ؛ لكن غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز . ولو حاز أن يقولوا : هو سجع معجز حاز لهم أن يقولوا : شعر معجز .

وكيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب ؟ ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر ؛ لأن الكهانة تناهى النبوات ، وليس كذلك الشعر والذي يقدرون أنه سجع فهو وهم ؛ لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً ؛ لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض ؛ لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع ، وليس كذلك ما اتفق ما هو في تقدير السجع من القرآن ؛ لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى . وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بالفاظه التي تؤدي المعنى المقصد فيه ، وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ ، ومتي ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره ، ومتي انتظم المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلباً لتحسين الكلام دون تصحيح المعنى .

^١) إعجاز القرآن للباقياني ٥٧ .

... ثم إن سلم لهم مسلم موضعًا ، أو موضع معدودة ، وزعم أن وقوع ذلك موقع الاستراحة في الخطاب إلى الفواصل لتحسين الكلام بها ، وهي الطريقة التي يبادر بها سائر الكلام ، وزعم أن الوجه في ذلك أنه من الفواصل ، أو زعم أن ذلك وقع غير مقصود إليه – فإن ذلك إذا اعترض في الخطاب لم يعد سجعا على ما قد بينا في القليل من الشعر كالبيت الواحد ، والبيتين من الرجز ، ونحو ذلك يعرض فيه فلا يقال : إنه شعر ؛ لأنه لا يقع مقصودا إليه ، وإنما يقع مغمورا في الخطاب ، وكذلك حال السجع الذي يزعمونه ويقدرونها .

ويقال لهم : لو كان الذي في القرآن على ما تقدرونها سجعا ؛ لكن مذموما مرذولا ؛ لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه ، واحتللت طرقه كان قبيحا من الكلام وللسجع منهجه مرتب محفوظ ، وطريق مضبوط متى أخل به المتكلم وقع الخلل في كلامه ، ونسب إلى الخروج عن الفصاحة كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخططا ، وكان شعره مرذولا ورعاً أخرجه عن كونه شعرا .

وقد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعا متقارب الفواصل متداين المقاطع ، وبعضها مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه ، وتترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام

كثير ، وهذا في السجع غير مرضي ولا محمود .^١

وكذلك يرى الزركشي في البرهان ما رأاه الباقلاي أن الفواصل القرآنية ليسit من السجع في شيء يقول : " لم يسموها أنسجاع فأما مناسبة فواصل ؛ فلقوله تعالى : " كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ " وأما تجنب أنسجاع ؛ فلأن أصله من سجع الطير فشرف القرآن الكريم أن يستعار لشيء فيه لفظ هو أصل في صوت الطائر ؛ ولأجل

^١ إعجاز القرآن للباقلاي ٥٧ : ٥٩ .

^٢ سورة فصلت من الآية (٣) .

تشريفه عن مشاركة غيره من الكلام الحادث في اسم السجع الواقع في كلام آحاد الناس ؛ ولأن القرآن من صفات الله عز وجل فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد الإذن بها وإن صح المعنى .^١

إيقاع المناسبة في الفواصل القرآنية :

إن إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل أكد في القرآن الكريم ، ومؤثر في اعتدال نسق الكلام ، وحسن موقعه من النفس تأثيراً عظيماً وتمثل إيقاعات المناسبة في النقاط التالية :

أولاً : أحدها زيادة حرف لأجل الفاصلة القرآنية ؛ ولهذا ألحقت الألف بـ (الظنون) في قوله تعالى : "وَتَظُنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا" ؛ لأن مقاطع فواصل هذه السورة ألفات منقلبة عن تنوين في الوقف فزيد على النون ألف لتساوي المقاطع ، وتناسب نهايات الفواصل ، ومثله: "فَاضْلُلُونَا السَّبِيلًا" ، "وَأَطْعَنَا الرَّسُولًا"^٢ وقوله تعالى: "لَعَلَّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ" كرر لعل مراعاة فواصل الآي ، إذ لو جاء على الأصل ؛ لقال لعلي أرجع إلى الناس فيعلموا بحذف النون على الجواب .^٣

الثاني: حذف همزة أو حرف اطراداً كقوله تعالى: "وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ"

^١) البرهان في علوم القرآن للبركشى ١ / ٥٤

^٢) سورة الأحزاب من الآية (١٠) .

^٣) سور الأحزاب من الآية (٦٧) .

^٤) سورة الأحزاب من الآية (٦٦) .

^٥) سورة يوسف من الآية (٤٦) .

^٦) سورة الفجر الآية (٤) .

الثالث : الجمع بين المحررات وبذلك يحاب عن سؤال في قوله تعالى: " ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا " فإنه قد توالى المحررات بالأحرف الثلاثة ، وهي اللام في: {لَكُمْ} ، والباء في {بِهِ} ، وعلى في {عَلَيْنَا} ، وكان الأحسن الفصل وجوابه أن تأخر {تَبِيعًا} وترك الفصل أرجح من أن يفصل به بين بعض الروابط وكذلك الآيات التي تتصل بقوله: " ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا " فإن فوائلها كلها منصوبة منونة ، فلم يكن بد من تأخير قوله {تَبِيعًا} لتكون نهاية هذه الآية مناسبة ل نهايات ما قبلها حتى تتناسق على صورة واحدة .

الرابع: تأثير ما أصله أن يقدم كقوله تعالى: " فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى " لأن أصل الكلام أن يتصل الفعل بفاعله ، ويؤخر المفعول لكن آخر الفاعل ، وهو موسى لأجل رعاية الفاصلة .

قلت للتأخير حكمة أخرى وهي أن النفس تتשוק لفاعل أو جس فإذا جاء بعد أن أخر وقع موقع ، كقوله تعالى : " وَلَوْلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمَّىً " فإن قوله : {وَأَجَلٌ مُسَمَّىً} معطوف على {كلمة} ؛ وهذا رفع والمعنى {ولولا كلاماً سبقتْ من ربك} في التأثير {وأجل مسمى} لكان العذاب لزاماً لكنه قدم وأخر لتشتبك رءوس الآي قاله ابن عطية، ومنه قوله تعالى : " وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ " فأخر الفاعل ؛ لأجل الفاصلة ، وقوله: " وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ " آخر الفعل عن المفعول فيها ، وقدمه فيما قبلها في قوله: " يُؤْمِنُونَ

^١) سورة الإسراء من الآية (٦٩) .

^٢) سورة طه الآية (٦٧) .

^٣) سورة طه الآية (١٢٩) .

^٤) سورة القمر الآية (٤١) .

^٥) سورة البقرة من الآية (٣) .

بِالْغَيْبِ وَيُقْرِيبُونَ الصَّلَاةَ " ؛ لتوافق رءوس الآي ، ومنه تأثير الاستعانة عن العبادة في قوله تعالى : "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"

٢

وهي قبل العبادة ، وإنما أخرت لأجل فوائل السورة في أحد الأجوية .

الخامس : إفراد ما أصله أن يجمع كقوله تعالى : "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ"

قال الفراء : الأصل الأنهر ، وإنما وحد ؛ لأنه رأس آية فقابل بالتوحيد رءوس الآي ويقال النهر الضياء ، والسعنة فيخرج من هذا الباب .

وقوله : "وَمَا كُنْتُ مُتَخَدِّدًا مُضْلِلًا عَضُدًا" قال : ابن سيده في الحكم أي أعضادا وإنما أفرد ليعدل رءوس الآي بالإفراد ، والعضد المعين .

السادس : جمع ما أصله أن يفرد كقوله تعالى : " لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ" فإن المراد ولا خلة بدليل الآية الأخرى لكن جمعه ؛ لأجل مناسبة رءوس الآي .

السابع : تثنية ما أصله أن يفرد كقوله تعالى : " وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ"

قال : الفراء هذا باب مذهب العرب في تثنية البعثة الواحدة ، وجمعها كقوله : ديار لها بالرقمتين ، قوله : بطن المكتين ، وأشار بذلك إلى نواحيها ، أو للإشعار بأن لها وجهين ، وأنك إذا أوصلتها ونظرت إليها يمينا وشمالا رأيت في كلتا الناحيتين ما يملأ عينك قرة وصدرك مسرا . قال : وإنما ثناهما ؛ لأجل الفاصلة رعاية للتي قبلها

^١ سورة البقرة من الآية (٣) .

^٢ سورة الفاتحة الآية (٥) .

^٣ سورة القمر الآية (٥٤) .

^٤ سورة الكهف من الآية (٥١) .

^٥ سورة إبراهيم من الآية (٣١) .

^٦ سورة الرحمن الآية (٤٦) .

والتي بعدها على هذا الوزن والقوافي تتحمل في الزيادة والنقصان مالا يحتمله سائر الكلام .

وأنكر ذلك ابن قتيبة عليه ، وأغلظ وقال : إنما يجوز في رءوس الآي زيادة هاء السكت ، أو الألف ، أو حذف همزة ، أو حرف ، فاما أن يكون الله وعد جنتين ف يجعلهما جنة واحدة من أجل رءوس الآي فمعاذ الله ، وكيف هذا ؟ وهو يصفها بصفات الاثنين ، قال : " ذَوَاٰتاً أَفْنَانِ " ثم قال : " فِيهِمَا " ولو أن قائلا قال : في حزنة النار إِنَّمَا عشرون ، وإنما جعلهم الله تسعة عشر ؛ لرأس الآية ما كان هذا القول إلا كقول الفراء .

وكان الملحيء للفراء إلى ذلك قوله تعالى: " وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى " ، وعكس ذلك قوله تعالى : " فَلَا يُخْرِجُنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى " على أن هذا قابل للتأويل فإن الألف واللام للعموم خصوصا أنه يرد على الفراء قوله: " ذَوَاٰتاً أَفْنَانِ " .

الثامن: تأنيث ما أصله أن يذكر كقوله تعالى : " كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ " ؛ وإنما عدل إليها للفاصلة .

التاسع: كقوله: " سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى " وقال في العلق: " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ " فزاد في الأولى " الأَعْلَى " ، وزاد في الثانية: " خَلَقَ " مراعاة للفواصل

^١ سورة الرحمن الآية (٤٨) .

^٢ سورة النازعات الآيات (٤٠ ، ٤١) .

^٣ سورة طه من الآية (١١٧) .

^٤ سورة عبس الآية (١١) .

^٥ سورة الأعلى الآية (١) .

^٦ سورة العلق الآية (١) .

في السورتين ، وهى في سبع "الذى خلقَ فَسُوئَ" وفي العلق: "الذى خلقَ
الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ" .^٢

العاشر: صرف ما أصله ألا ينصرف كقوله تعالى: "قَوَارِبًا قَوَارِبًا" صرف الأول
لأنه آخر الآية ، وآخر الثاني بالألف ، فحسن جعله منونا ليقلب تنوينه ألفا
فيتناسب مع بقية الآي كقوله تعالى : "سَلَاسِلاً وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا" فإن "سَلَاسِلاً"
لما نظم إلى "وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا" صرف ونون للتناسب ، وبقي قوارير الثاني فإنه ،
وإن لم يكن آخر الآية حاز صرفه ؛ لأنه لما نون قواريرا الأول ناسب أن ينون قواريرا
الثاني ليتناسبا ؛ ولأجل هذا لم ينون قواريرا الثاني إلا من ينون قواريرا الأول . وزعم
إمام الحرمين في البرهان أن من ذلك صرف ما كان جماعا في القرآن ليتناسب رءوس
الآي كقوله تعالى : {سَلَاسِلاً وَأَغْلَالًا} وهذا مردود ؛ لأن سلاسلا ليس رئيس آية
ولا قواريرا الثاني ، وإنما صرف للتناسب واجتماعه مع غيره من المنصرفات فيرد إلى
الأصل ليتناسب معها .^٥

ختم مقاطع الفواصل بحروف المد واللين .

"قد كثر في القرآن الكريم ختم الكلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد واللين وإلحاق
النون ، وحكمته وجود التمكّن من التطريب بذلك قال سيبويه رحمه الله ، أما إذا
ترجموا فإنهم يلحقون الألف ، والواو ، والياء ما ينون ، وما لا ينون ؛ لأنهم أرادوا مد

^١) سورة الأعلى الآية (٢) .

^٢) سورة الآية (٢) .

^٣) سورة الإنسان من الآية (١٥) ، ومن الآية (١٦) . وتكلمة الآياتان **وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِأَنْتِهِ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ** كانت قواريرًا
(١٥) **قَوَارِبٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا** (١٦)

^٤) سورة الإنسان من الآية (٤) .

^٥) البرهان في علوم القرآن للزرκشي ١ / ٦٠ : ٦٦ .

الصوت . وإذا أنشدوا ولم يتغموا ، فأهل الحجاز يدعون القوافي على حالها في الترجم
 ، وناس منبني تيميم يبدلون مكان المدة النون . " ١

مبني الفواصل على الوقف .

" إن مبني الفواصل على الوقف ؛ وهذا شاع مقابلة المروع بالمحروم ، وبالعكس
 وكذا المفتوح والمنصوب غير المنون ، ومنه قوله تعالى : "إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ
 لازِبٌ" مع تقدم قوله : "عَذَابٌ وَاصِبٌ" ، و"شَهَابٌ ثَاقِبٌ" ، وكذا "بِمَا إِ
 مُنْهَمِرٌ" ، و"قَدْ قُدِرَ" ، وكذا "وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٌ" ، مع "وَيُنْشَئُ
 السَّحَابَ الشَّقَالَ" . " ٤

المحافظة على الفواصل لحسن النظم والشامة .

ذكر الزمخشري في كشافه القديم : أنه لا تحسن المحافظة على الفواصل بمحردها إلا
 مع بقاء المعاني على سدادها على النهج الذي يقتضيه حسن النظم والشامة ، كما
 لا يحسن تخيير الألفاظ المونقة في السمع السلسلة على اللسان ؛ إلا مع مجئها
 منقادة للمعنى الصحيحة المنتظمة . فأما أن تحمل المعاني ، ويهتم بتحسين اللفظ
 وحده غير منظور فيه إلى مؤاده على بال ، فليس من البلاغة في فتيل ، أو نقير

^١) البرهان في علوم القرآن للبركشي ١ / ٦٨ ، ٦٩ .

^٢) سورة الصافات من الآية (١١) .

^٣) سورة الصافات من الآية (٩) .

^٤) سورة الصافات من الآية (١٠) .

^٥) سورة القمر من الآية (١١) .

^٦) سورة القمر من الآية (١٢) .

^٧) سورة الرعد من الآية (١١) .

^٨) سورة الرعد من الآية (١٢) .

ومع ذلك يكون قوله : "وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقَنُونَ" ، قوله : "وَمَمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفَقُونَ" لا يتأتى فيه ترك رعاية التناسب في العطف بين الجمل الفعلية إيشارا للفاصلة ؛ لأن ذلك أمر لفظي لا طائل تحته ، وإنما عدل إلى هذا لقصد الاختصاص .

تقسيم الفواصل باعتبار المتماثل والمتقارب في الحروف .

إن الفواصل تنقسم إلى ما تمثلت حروفه في المقاطع ، وهذا يكون في السجع . وإلى ما تقارب حروفه في المقاطع ، ولم تتماثل . وهذا لا يكون سجعا ، ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين المتماثل والمتقارب من أن يأتي طوعا سهلا تابعا للمعاني ، أو متکلفا يتبعه المعنى .

فالقسم الأول : هو الحمود الدال على الثقافة ، وحسن البيان ، والثاني هو المذموم فأما القرآن فلم يرد فيه إلا القسم الأول لعلوه في الفصاحة .

٢ وقد وردت فواصله متماثلة ، ومتقاربة . مثال المتماثلة قوله تعالى : "وَالطُّورِ وَكِتَابِ مَسْطُورٍ فِي رَقٍ مَنْشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ" .

٣ وقوله تعالى : " طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْكِي إِلَّا تَذَكِّرَةً لِمَنْ يَخْشَى تَنْزِيلًا مِمْنَ خَلْقِ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى" .

^١ سورة البقرة من الآية (٤) .

^٢ سورة الطور الآيات (١ : ٥) .

^٣ سورة طه الآيات (١ : ٥) .

وقوله تعالى : " وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالوُتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ " إلى آخره وحذفت الياء من {يسرى} طلباً للموافقة في الفواصل . وغير ذلك في القرآن كثير .

ومثال المتقارب في الحروف قوله تعالى : " الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ " وقوله تعالى : " قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ " ^٣

^١ سورة الفجر الآيات (١ : ٤) .

^٢ سورة الفاتحة الآيات (٣ ، ٤) .

^٣ البرهان في علوم القرآن للزرκشي ١ / ٦٩ ، ٧٤ . والآيات سورة ق (١ ، ٢) .

الفصل الثاني

الوحي ونزول القرآن

وبه ثلاثة مباحث

المبحث الأول :

الوحي

المبحث الثاني :

المكي والمدني

المبحث الثالث :

نزول القرآن الكريم

المبحث الأول
الوحي

حقيقة الوحي وأنواعه وكيفياته :

" أما الوحي فمعناه في لسان الشرع أن يعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان المداية والعلم ، ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر .

ويكون على أنواع شتى: منه ما يكون مكالمة بين العبد وربه كما كلام الله موسى تكليما. ومنه ما يكون إلهااما يقذفه الله في قلب مصطفاه على وجه من العلم الضروري لا يستطيع له دفعا ، ولا يجد فيه شكّا. ومنه ما يكون مناما صادقا يجيء في تتحققه ، ووقوعه كما يجيء فلق الصبح في تبلجه وسطوعه. ومنه ما يكون بوساطة أمين الوحي جبريل عليه السلام ، وهو ملك كريم ذو قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين . وذلك النوع هو أشهر الأنواع وأكثرها. ووحي القرآن كله من هذا القبيل وهو المصطلح عليه بالوحي الجلي . قال الله تعالى في سورة الشعراء:

" نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِّرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيًّا مُّبِينٌ " .

ثم إن ملك الوحي يهبط هو الآخر على أساليب شتى: فتارة يظهر للرسول في صورته الحقيقة الملوكية . وتارة يظهر في صورة إنسان يراه الحاضرون ويستمعون إليه . وتارة يهبط على الرسول خفية فلا يرى ولكن يظهر أثر التغير ، والانفعال على صاحب الرسالة فيغط غطيط النائم ، ويغيب غيبة كأنها غشية ، أو إغماء ، وما هي في شيء من الغشية والإغماء ؛ إن هي إلا استغراق في لقاء الملك الروحاني وانخلاع عن حالته البشرية العادية . فيؤثر ذلك على الجسم فيغط ويثقل ثقلًا شدیدا قد يتسبب منه الجبين عرقا في اليوم الشديد البرد . وقد يكون وقع الوحي

على الرسول كوقع الجرس إذا صلصل في أذن سامعه وذلك أشد أنواعه. وربما سمع الحاضرون صوتا عند وجه الرسول كأنه دوي النحل ؛ لكنهم لا يفهون كلاما ولا يفهون حديثا. أما هو صلوات الله وسلامه عليه فإنه يسمع ويعي ما يوحى إليه ويعلم علما ضروريا أن هذا هو وحي الله دون لبس ولا خفاء ، ومن غير شك ولا ارتياح . فإذا انخلع عنه الوحي وجد ما أوحى إليه حاضرا في ذاكرته منتقبا في حافظته كأنما كتب في قلبه كتابة.

والأدلة الشرعية على ما ذكرنا كثيرة في الكتاب والسنّة منها ما قصصنا عليك في تنزّلات القرآن ومنها قوله تعالى: "وَمَا يُنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوَحِّي".

الوحي من ناحية العلم :

اعلم أن أعداء الوحي ومنكريه لا يؤمنون بالشرع وأدلة الشرع. إنما يؤمنون بالعقل على الطريقة التي يستسيغونها ، وبالعلم الذي تواضعوا عليه في اصطلاحهم الحديث وهو : جملة المعارف اليقينية التي أنتجها دستور البحث الجديد في الوجود وكائناته ما جعل الشك أساسا للبحث ، والاستناد إلى القاطع الذي يؤيده الحس دون سواه فهم يقدمون الشك ، وبمعنون فيه ثم لا يعترفون إلا بالحسينيات ، ولا يخلون بمجرد العقليات . ومن هنا سجنوا أنفسهم في سجن المادة ومكثوا حينا من الدهر ينكرون ما وراء المادة ، ويصررون في الشكوك إلى أبعد الحدود ويستخفون بأمر الإلهيات والنبوات والوحي إلى مدى بعيد لم تصل إليه أظلم عهود الجahليّة لولا أن صدمتهم العلم نفسه صدمة عنيفة غيرت رأيهم في إنكار ما وراء المادة. وإنما نبدأ هنا بأدلة الوحي العلمية ؛ لأنها في الواقع أدلة لإمكان الوحي وتفريجه إلى العقول.

^١ سورة النجم الآيات (٤ ، ٣) . منهالعرفان في علوم القرآن ١ / ٥٥ ، ٥٦ .

وإمكانية الوحي هو الخطوة الأولى في الموضوع، وهو ملحوظ في المقدمة الأساسية من مقدمات الدليل العقلي الآتي فلا غرو أن يكون لتلك الأدلة العلمية مكان الصدارة والتقديم .

الدليل الأول: التنويم الصناعي أو التنويم المغناطيسي وهو من المقررات العلمية الثابتة. كشفه الدكتور مسمر الألماني في القرن الثامن عشر وجاهد هو ، وأتباعه مدى قرن كامل من الرمان في سبيل إثباته ، وحمل العلماء على الاعتراف به وقد نجحوا في ذلك فاعترف العلماء به علمياً بعد أن اختبروا به الآلاف المؤلفة من الخلق واطمأنوا إلى تجاريته . وأخيراً أثبتوا بوساطته ما يأبى :

- ١- أن للإنسان عقلاً باطنًا أرقى من عقله المعتاد كثيراً.
- ٢- أنه وهو في حال التنويم يرى ويسمع من بعد شاسع ويقرأ من وراء حجب، ويخبر بما سيحدث مما لا يوجد في عالم الحس أقل علامه لحدوثه.
- ٣- أن للتنويم درجات بعضها فوق بعض يزداد العقل الباطن سموا بتنقله فيها.
- ٤- أنه قد يصل إلى درجة تخرج فيها روح الوسيط من جسده وتمثل إلى جانبه غير مرئية بينما يكون الجسم في حالة تشبه الموت لولا علاقة خفية بين الروح والجسم.
- ٥- أثبتوا من وراء ذلك أن هناك روحًا.
- ٦- أن الروح مستقلة عن الجسم كل الاستقلال.
- ٧- أن الروح لا تتحل بالتحلل.
- ٨- أنها تتصل بالأرواح التي سبقتها إذا تحررت عن المادة . إلى غير ذلك مما لا نسلم جميع تفاصيله تقليداً وإن كانت نسلماً لهذا العلم وبتجاريته . ومقرراته في الجملة ثبوت الدليل بها في الجملة أيضاً بواسطة التجارب العديدة

والمشاهدات الكثيرة. وله في الغرب أنصار من علماء وطلاب وله دور وكتب وله مستشفيات يؤمنها الناس للتداوي به.

فالوحي عن طريق الملك عبارة عن اتصال الملك بالرسول اتصالا يؤثر به الأول في الثاني ، ويتأثر فيه الثاني بالأول ، وذلك باستعداد خاص في كليهما فال الأول فيه قوة الإلقاء والتأثير لأنه روحاني محسن ، والثاني فيه قابلية التلقى عن هذا الملك لصفاء روحانيته وطهارة نفسه المناسبة لطهارة الملك. وعند تسلط الملك على الرسول ينسليخ الرسول عن حالته العادية ، ويظهر أثر التغيير عليه ، ويستغرق في الأخذ والتلقى عن الملك ويطبع ما تلقاه في نفسه ؛ حتى إذا انجلى عنه الوحي وعاد إلى حاليه الأولى وجد ما تلقاه ماثلا في نفسه حاضرا في قلبه كأنما كتب في صحيفة فؤاده كتابا.

أتظن أيها القارئ الكريم أن المخلوق يستطيع أن يؤثر في نفس مخلوق آخر ذلك التأثير بواسطة التنويم المغناطيسي ثم لا يستطيع مالك القوى والقدر أن يؤثر في نفس من شاء من عباده بواسطة الوحي كلاما ثم كلاما إنه على ما يشاء قدير.

الدليل العلمي الثاني: إن العلم الحديث استطاع أن يختبر من العجائب ما نعرفه ونشاهده ونتفع به مما يسمونه التليفون واللاسلكي والميكروفون والراديو. وعن طريق أولئك أمكن الإنسان أن يخاطب من كان في آفاق بعيدة عنه ، وأن يفهمه ما شاء ويرشده إلى ما أراد. فهل يعقل بعد قيام هذه المخترعات المادية أن يعجز الإله القادر عن أن يوحى إلى بعض عباده ما شاء عن طريق الملك أو غير الملك تعالى .
الله عما يقولون علوا كبيرا.

الدليل الثالث: استطاع العلم أيضاً أن يملاً بعض اسطوانات من الجمام الحامد الجاهل بأصوات ، وأنغام ، وبقرآن ، وأغان ، وكلام على وجه يجعلها حاكية له بدقة ، وإتقان ، وبين أيدينا من ذلك شيء كثير لا سبيل إلى إنكاره .
أبعد هذه المخترعات القائمة يستبعد على القادر تعالى بوساطة ملك ومن غير وساطة ملك أن يملاً بعض نفوس بشرية صافية من خواص عباده بكلام مقدس يهدي به خلقه. ويظهر به حقه على وجه يجعل ذلك الكلام منتقداً في قلب رسوله حتى يحكمه بدقة وإتقان كذلك؟

الدليل الرابع : العبرية ويعرفها أفلاطون بأنها : حال إلهية مولدة للإلهامات العلوية للبشر ، ويقرر الفلاسفة أنها حال علوية لا شأن للعقل فيها. ويقول الطبيعيون: إنها هبة من الطبيعة نفسها لا تحصلها دراسة ولا يوجد لها تفكير.
وهكذا أمثلة للعبرية والعباقرة تشع على موضوع الوحي نوراً كشافاً يهدي الحيارى الصالين إلى سواء السبيل.

الوحي من ناحية العقل :

عرفت فيما سقناه لك من الأدلة العلمية أن الوحي ممكن و قريب من الواقع ، ونقيم لك الدليل العقلي هنا على أن هذا الأمر الممكن قد وقع فعلاً . ذلك أنه قد أخبر بوقوعه الصادق المعصوم محمد صلى الله عليه وسلم . وكل ما أخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو حق ثابت ، وذلك هو المطلوب . أما الدليل على أنه قد أخبر بوقوعه الصادق المعصوم بما مر عليك من أنباء الوحي في الكتاب والسنة . وأما الدليل على أن كل ما أخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو حق ثابت فإن ذلك هو مقتضى الصدق والعصمة . وأما الدليل على أن محمداً صلى الله عليه وسلم

صادق معصوم فإنما هي المعجزة القائمة مقام قوله تعالى لعباده في شأن تصدق رسوله صدق عبدي في كل ما يبلغ عني ومن ذلك أنه يوحى إليه مني .
وهنا نجد أنفسنا قد انتهينا إلى المعجزة فما هي المعجزة ؟

المعجزة :

هي أمر يعجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله . أو هي أمر خارق للعادة خارج عن حدود الأسباب المعروفة يخلقه الله تعالى على يد مدعوي النبوة عند دعوah إياها شاهدا على صدقه . فإذا قام إنسان ما وادعى أنه مبعوث الله إلى خلقه ورسوله إلى عباده وقال : إن آية صدقني فيما أدعى أن يغير الله الذي أرسلني عادة من عاداته على يدي ، وأن يخرج الآن عن سنة من سننه العامة في وجوده ثم قال : وسيأتيكم الله بهذا الأمر العجائب من باب ترون أنكم فيه نابغون وعليه قادرلون . وإن أتحدأكم أن تأتوا بمثل هذه الآية ، وأمامكم الباب مفتوحا كما تعتقدون وفيكم النبوغ موفور كما تدعون ، ثم أنتم مجتمعون وأنا وحدي . قال ذلك بلغة الواقع وتحدانا هذا التحدي الظاهر في وقت يثور فيه على عقائدهنا وعاداتنا وأخلاقنا ويسقه فيه أحلامنا ، وأحلام أمثالنا من آبائنا . ونحن أحبرص ما نكون على تعجيزه وتبهيه والغلبة عليه والظفر به دفاعا عن كرامتنا ، وانتصارا لأعز شيء لدينا .
ثم لم يلبث أن قام وقمنا وأجمع أمره وأجمعنا وإذا نحن جميعا بعد محاولات ومداولات لم نستطع أن نأتي بمثل ما أتى به فضلا عن أعظم منه . مع أننا أمة وهو فرد . ومع أنه قد دخل علينا من أيسر الطرق في نظرنا ومن أشهر فن في زماننا ومع أنه قد أعطانا الفرصة الكافية لمناظرته وأنصفنا كل إنصاف من نفسه .

هل يشك ذو مسكة من عقل في أن هذا الإنسان المتفوق الممتاز صادق في رسالته
حق في دعایته خصوصا إذا عرفنا فوق ذلك كله أنه نشأ فينا على الصدق والأمانة
ومكارم الأخلاق من لدن صباه وطفولته إلى يوم مبعثه ورسالته.

لو أنه جاء بالمعجزة من باب لا نعرفه لقلنا رجل حذق فنا من الفتن التي لا علم
لنا بها ، أو تعلم صناعة من الصناعات التي لم نحط بخبرها. أما وقد جاءنا من
الناحية التي نشهد لأنفسنا فيها بالفوق والسبق ، فلا يسعنا إلا الإذعان له والإيمان
بما جاء به ما دمنا منصفين .
^١

^١ انظر مناهل العرفان في علوم القرآن ١ / ٥٦ : ٦٤ .

المبحث الثاني
المكي والمدني

إن معرفة المكي والمدني علم قائم بنفسه ؛ ولذلك ألف فيه المؤخرون كتاباً منهم العز الدبييني . ويعود ترتيب المكي والمدني ومعرفته من أشرف علوم القرآن الكريم . وإن أبواب هذا العلم كثيرة متفرعة نقتصر في الورicات الآتية على دراسة الأهم منها لدراسات الدراسات الإسلامية . وهي الاصطلاحات في معنى المكي والمدني ، وفائدة العلم بالمكي والمدني ، الطريق الموصولة إليه ، والضوابط التي يعرف بها ، والسور المكية والمدنية وال مختلف فيها ، وأنواع السور المكية والمدنية .

الاصطلاحات في معنى المكي والمدني :

إن للعلماء في المكي والمدني ثلاثة اصطلاحات هي كالتالي :

الاصطلاح الأول وهو أشهرها : "أن المكي ما نزل قبل الهجرة ، والمدني ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أم بالمدينة عام الفتح ، أو عام حجة الوداع ، أم بسفر من الأسفار . أخرج عثمان بن سعد الرازي بسنده إلى يحيى بن سلام قال : ما نزل بمكة ، وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي المدينة فهو من المكي ، وما نزل على النبي في أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدني ، وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أن ما نزل في سفر الهجرة مكي اصطلاحاً .

الثاني : أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدني ما نزل بالمدينة . وعلى هذا تثبت الواسطة فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكي ولا مدني .

وقد أخرج الطبراني في الكبير من طريق الوليد بن مسلم عن عفیر بن معدان عن ابن عامر عن أبي أمامة قال : قال رسول الله : أنزل القرآن في ثلاثة أمکنة مکة والمدينة والشام قال الوليد يعني بيت المقدس .

ويدخل في مكة ضواحيها كالمنزل بمنى ، وعرفات ، والحديبة . وفي المدينة ضواحيها
كالمنزل ببدر وأحد وسلع .

الثالث : أن الملكي ما وقع خطابا لأهل مكة، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة .

قال القاضي أبو بكر في الانتصار : إنما يرجع في معرفة المكى ، والمدни إلى حفظ الصحابة ، والتابعين . ولم يرد عن النبي في ذلك قول ؛ لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة ، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول . " وعليه يحمل قول ابن مسعود أن " الغالب على أهل مكة الكفر فخوطبو : يأيها الناس ، وإن كان غيرهم داخلاً فيهم ، وكان الغالب على أهل المدينة الإيمان فخوطبو : يأيها الذين آمنوا ، وإن كان غيرهم داخلاً فيهم . " وعلى هذا فالآيات المبتدأة بقوله تعالى : " يا أيها الناس مكية ، والآيات المبتدأة بقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا " مدنية .

فائدة العلم بالمعكي والمدني :

"من فوائد العلم بالملكي والمدني : تمييز الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيات، أو آيات من القرآن الكريم في موضوع واحد و، كان الحكم في إحدى هاتين الآيتين، أو الآيات مخالفًا للحكم في غيرها . ثم عرف أن بعضها مكي وبعضها مدني فإننا نحكم بأن المدني منها ناسخ للملكي نظرا إلى تأخر المدني عن المكي.

ومن فوائده أيضاً معرفة تاريخ التشريع وتدرجـه الحكيم بوجه عام ، وذلك يترتب عليه الإيمان بسمـو السياسـة الإسلامية في تربية الشعـوب والأفراد .
ومن فوائده أيضاً الثقة بهذا القرآن ، وبوصولـه إلينـا سـالماً من التغيـير والتحـريف.

^١) الإتقان في علوم القرآن ٩ / ١٠ .

٢) البرهان في علوم القرآن ١ / ١٨٧ .

ويدل على ذلك اهتمام المسلمين به كـل هذا الاهتمام ؛ حتى لـيعرفون ويـتـناـقـلـون ما نـزـلـ مـنـهـ قـبـلـ الـهـجـرـةـ ، وـماـ نـزـلـ بـعـدـهـ ، وـماـ نـزـلـ بـالـحـضـرـ ، وـماـ نـزـلـ بـالـسـفـرـ ، وـماـ نـزـلـ بـالـنـهـارـ ، وـماـ نـزـلـ بـالـلـيلـ ، وـماـ نـزـلـ بـالـشـتـاءـ ، وـماـ نـزـلـ بـالـصـيفـ وـماـ نـزـلـ بـالـأـرـضـ ، وـماـ نـزـلـ بـالـسـمـاءـ إـلـىـ غـيـرـ ذـلـكـ . فـلاـ يـعـقـلـ بـعـدـ هـذـاـ أـنـ يـسـكـنـوـ وـيـتـرـكـواـ أـحـدـاـ يـمـسـهـ وـيـعـبـثـ بـهـ ، وـهـمـ المـتـحـمـسـوـنـ لـحـرـاسـتـهـ وـحـمـاـيـتـهـ ، وـالـإـحـاطـةـ بـكـلـ ماـ يـتـصـلـ بـهـ أـوـ يـحـفـ بـنـزـولـهـ إـلـىـ هـذـاـ الحـدـ .^١

الطريق المؤصلة إلى المكي والمدني وضوابطه :

لا سـبـيلـ إـلـىـ مـعـرـفـةـ المـكـيـ وـالـمـدـنـيـ إـلـاـ بـماـ وـرـدـ عـنـ الصـحـابـةـ وـالـتـابـعـينـ فيـ ذـلـكـ ؛ لأنـهـ لمـ يـرـدـ عـنـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ بـيـانـ لـلـمـكـيـ وـالـمـدـنـيـ . وـذـلـكـ ؛ لأنـ الـمـسـلـمـينـ فيـ زـمـانـهـ لمـ يـكـونـواـ فيـ حـاجـةـ إـلـىـ هـذـاـ بـيـانـ كـيـفـ ؟ وـهـمـ يـشـاهـدـونـ الـوـحـيـ وـالـتـنـزـيلـ وـيـشـهـدـونـ مـكـانـهـ ، وـزـمـانـهـ وـأـسـبـابـ نـزـولـهـ عـيـانـاـ . وـلـيـسـ بـعـدـ الـعـيـانـ بـيـانـ .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : والله الذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت؟ ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيما نزلت؟ ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه. وقال أئوب: سأله رجل عكرمة عن آية من القرآن فقال: نزلت في سفح ذلك الجبل وأشار إلى سلع .

علامات وضوابط يعرف بها المكي والمدني.

أولاً : ضوابط المكي:

^١) مناهل العرفان في علوم القرآن ١ / ١٦١ .

- ١- كل سورة فيها لفظ " كلا " فهي مكية ، وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن ثلاثة وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها في النصف الأخير من القرآن.
- قال العماني: وحكمة ذلك أن نصف القرآن الأخير نزل أكثره بمكة ، وأكثرها جبارة فتكررت فيه على وجه التهديد والتعنيف لهم ، والإنكار عليهم بخلاف النصف الأول. وما نزل منه في اليهود لم يحتاج إلى إبرادها فيه لذلتهم وضعفهم .
- ٢- كل سورة فيها سجدة فهي مكية لا مدنية .
- ٣- كل سورة في أولها حروف التهجي فهي مكية سوى سورة البقرة ، وآل عمران فإنهما مدنستان بالإجماع . وفي الرعد خلاف.
- ٤- كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهي مكية سوى البقرة.
- ٥- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة أيضا.
- ٦- كل سورة فيها يا أيها الناس ، وليس فيها يا أيها الذين آمنوا فهي مكية .
- ٧- كل سورة من المفصل فهي مكية. أخرج الطبراني عن ابن مسعود قال: نزل المفصل بمكة فمكثنا حجاجا نقرؤه ولا ينزل غيره ، لكن يرد على هذا أن بعض سور المفصل مدني نزل بعد الهجرة اتفاقاً كسورة النصر ، فإنها كانت من أواخر ما نزل بعد الهجرة ، بل قيل إنها آخر ما نزل . فالأولى أن يحمل كلام ابن مسعود هذا على الكثرة الغالبة من سور المفصل لا على جميع سور المفصل . والمفصل : هو السور الأخيرة من القرآن الكريم مبتداة من سورة الحجرات على الأصح ، وسميت بذلك لكتلة الفصل فيها بين سور بعضها وبعض من أجل قصرها.
- وقيل: سميت بذلك لقلة المنسوخ فيها فقولها قول فصل: لا نسخ فيه ولا نقض.
- ثانياً : ضوابط المدنى:
- ١- كل سورة فيها الحدود والفرائض فهي مدنية.

- ٢- كل سورة فيها إذن بالجهاد وبيان لأحكام الجهاد فهي مدنية.
٣- كل سورة ذكر فيها المنافقون فهي مدنية ما عدا سورة العنكبوت. والتحقيق أن سورة العنكبوت مكية ما عدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها فإنها مدنية. وهي التي ذكر فيها المنافقون .^١

السور المكية والمدنية والمختلف فيها .

روي عن ابن عباس أنه قال : سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة فهي مكية إلا ثلات آيات منها نزلن بالمدينة : قل تعالوا أتل إلى تمام الآيات الثلاث ، وما تقدم من السور مدنیات . ونزلت بمكة سورة الأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف والرعد ، وإبراهيم ، والحجر ، والنحل سوى ثلات آيات من آخرها فإنهن نزلن بين مكة والمدينة في منصرفة من أحد ، وسورة بنى إسرائيل ، والكهف ، ومريم ، وطه والأنبياء ، والحج سوى ثلات آيات " هذان خصماني " إلى تمام الآيات الثلاث فإنهن نزلن بالمدينة ، وسورة المؤمنين ، والفرقان ، وسورة الشعراة سوى خمس آيات من آخرها نزلن بالمدينة " والشعراء يتبعهم الغاوون " إلى آخرها ، وسورة النمل والقصص ، والعنكبوت ، والروم ، ولقمان سوى ثلات آيات منها نزلن بالمدينة " ولو أئما في الأرض من شجرة أقلام " إلى تمام الآيات ، وسورة السجدة سوى ثلات آيات " ألمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا " إلى تمام الآيات الثلاث ، وسورة سباء ، وفاطر ، ويس ، والصفات ، وص ، والزمر سوى ثلات آيات نزلن بالمدينة في وحشي قاتل حمزة : " قل يا عبادي الذين أسرفوا " إلى تمام الثلاث آيات

^١ انظر مناهل العرفان في علوم القرآن ١ / ١٦١ ، ١٦٢ .

والحواميم السبع ، وق ، والذاريات ، والطور ، والنجم ، والقمر ، والرحمن ، والواقعة ، والصف ، والتغابن إلآ آيات من آخرها نزلن بالمدينة ، والملك ، ون الحافة ، وسائل ، وسورة نوح ، والجن ، والمزمل إلآ آيتين : " إن ربك يعلم أنك تقوم " ، والمدثر إلى آخر القرآن إلآ إذا زللت ، و إذا جاء نصر الله ، و قل هو الله أحد ، و قل أعوذ برب الفلق ، و قل أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ فَإِنَّهُ مَدْنِيَّاتٌ . ونزل بالمدينة سورة الأنفال ، وبراءة ، والنور ، والأحزاب ، وسورة محمد ، والفتح والحجرات ، وال الحديد وما بعدها إلى التحرير .

وروي عن عكرمة والحسن بن أبي الحسن قالا : أنزل الله من القرآن بمكة اقرأ باسم ربك ، ون ، والمزمل ، والمدثر ، و تبت يدا أبي هب ، و إذا الشمس كورت ، و سبع اسم ربك الأعلى ، و الليل إذا يغشى ، والفجر ، والضحى ، و ألم نشرح والعصر ، والعadiات ، والكوثر ، و الماكم التكاثر ، و أرأيت ، و قل يا أيها الكافرون ، وأصحاب الفيل ، والفلق ، و قل أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، و قل هو الله أحد والنجم ، وعبس ، و إنما أنزلناه ، و الشمس وضحاها ، و السماء ذات البروج ، و والتين والريتون ، و لإيلاف قريش ، والقارعة ، و لا أقسم بيوم القيمة ، والهمزة والمرسلات ، وق ، و لا أقسم بهذا البلد ، و السماء والطارق ، و اقتربت الساعة وص ، والجن ، ويس ، والفرقان ، والملائكة ، وطه ، والواقعة ، وطسم ، وطسم ، وبني إسرائيل ، والتاسعة ، و هوود ، ويوسف ، وأصحاب الحجر ، والأنعام والصفات ، ولقمان ، وسبأ ، والزمر ، وحم المؤمن ، وحم الدخان ، وحم السجدة ، وحم عسق ، وحم الزخرف ، والجاثية ، والأحقاف ، والذاريات ، والغاشية ، وأصحاب الكهف ، والنحل ، ونوح ، وإبراهيم ، والأنبياء ، والمؤمنون

وآلم السجدة ، والطور ، وتبarak ، والحاقة ، وسائل ، وعم يتساءلون ، والنازعات ،
وإذا السماء انشقت ، وإذا السماء انفطرت ، والروم ، والعنكبوت .

وما نزل بالمدينة ويل للمطففين ، والبقرة ، وآل عمران ، والأنفال ، والأحزاب
والمائدة ، والمتحنة ، النساء ، وإذا زللت ، وال الحديد ، محمد ، والرعد ، الرحمن
وهل أتى على الإنسان ، والطلاق ، ولم يكن ، والحضر ، وإذا جاء نصر الله
والنور ، والحج ، والمنافقون ، والجادلة ن والحرجات ، ويا أيها النبي لم تحرم ،
الصف ، والجمعة ، والتغابن ، والفتح ، وبراءة .^١

ويقول صاحب مناهل العرفان عن سور المكية والمدنية والمختلف فيه ما نصه : " نقل السيوطني في الإتقان أقوالاً كثيرة في تعين سور المكية والمدنية من أوفقها ما ذكره أبو الحسن الحصار في كتابه الناسخ والمنسوخ إذ يقول :

المدني باتفاق عشرون سورة ، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة ، وما عدا ذلك مكي
باتفاق ، ثم نظم في ذلك أبياتاً رقيقة جامعة وهو يزيد بالسور العشرين المدنية
بالاتفاق : سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والنور والأحزاب
ومحمد والفتح والحرجات والحديد والجادلة والحضر والمتحنة والجمعة والمنافقون
والطلاق والتحرير والنصر .

ويريد بالسور الاثنتي عشرة المختلف فيها: سورة الفاتحة والرعد والرحمن والصف
والتجابن والتطفيف والقدر ولم يكن وإذا زللت والإخلاص والمعوذتين . ويريد بالسور
المكية باتفاق ما عدا ذلك ، وهي اثنتان وثمانون سورة .^٢

^١) الإتقان في علوم القرآن ١ / ٩ : ١٢ .

^٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ١ / ١٦٣ .

أنواع السور المكية والمدنية :

قد تكون السورة كلها مكية ، وقد تكون كلها مدنية ، وقد تكون السورة مكية ما عدا آيات منها ، وقد تكون مدنية ما عدا آيات منها فتلك أربعة أنواع:

مثال النوع الأول : سورة المدثر فإنها كلها مكية. ومثال الثاني : سورة آل عمران فإنها كلها مدنية ، ومثال الثالث : سورة الأعراف فإنها مكية. ما عدا آية " وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقُرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ " قاله قتادة. واستثنى غيره هذه الآية المذكورة وما بعدها من الآيات إلى قوله سبحانه: " وَإِذْ أَخَذَ رِبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ " وقال: إن تلك الآيات مدنية. ومثال النوع الرابع : سورة الحج فإنها مدنية ما عدا أربع آيات منها تبتدئ بقوله سبحانه: " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٌّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى " إلى قوله: " عَذَابٌ يَوْمَ الْعَقِيمِ " .^٤

واعلم أن وصف السورة بأنها مكية أو مدنية يكون تبعا لما يغلب فيها أو تبعا لفاحتها فقد ورد أنه إذا نزلت فاتحة سورة بمكة مثلا كتبت مكية ، ثم يزيد الله فيها ما يشاء . ولعل الأنسب بالاصطلاح المشهور في معنى المكي والمدني أن يقال: إذا نزلت فاتحة سورة قبل الهجرة كتبت مكية ، وإذا نزلت فاتحة سورة بعد الهجرة كتبت مدنية ثم يذكر المستثنى من تلك السور إن كان هناك استثناء فيقال: سورة كذا مكية إلا آية كذا فإنها مدنية ، أو سورة كذا مدنية إلا آية كذا فإنها مكية أو نحو ذلك كما تراه في كثير من المصاحف عنوانا للسورة .^٥

^١) سورة الأعراف من الآية (١٦٣) .

^٢) سورة الأعراف من الآية (١٧٢) .

^٣) سورة الحج من الآية (٥٢) .

^٤) سورة الحج من الآية (٥٥) .

^٥) مناهل العرفان في علوم القرآن ١ / ١٦٤ ، ١٦٥ .

المبحث الثالث
نزول القرآن الكريم

في كيفية إِنْزَالِهِ وَنَزْوْلِهِ .

قبل أن نتحدث عن كيفية إِنْزَالِ القرآن وَنَزْوْلِهِ لابد أن نفرق بين الإِنْزَالِ والنَّزْوْلِ ، فالإِنْزَالُ هو إِنْزَالُ القرآن دفعة واحدة ، وهو أنَّ القرآن أُنْزَلَ دفعة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا كما سُوفَ يأتي ، أما نَزْوْلُهِ فهو نَزْوْلُهِ مُفرقاً وَمُنْجَماً ، كما تقتضي الأحداث والأوقات مدة وَحِيَة للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وروي في إِنْزَالِهِ رويات وللعلماء في ذلك أقوال ثلاثة أصحها أنه أُنْزَلَ دفعة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر من شهر رمضان المُعْظَم كما قال تعالى : " شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ " ، وقال سبحانه : " إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقُدْرِ " وَنَزْوْلُهِ جاءَ مُفرقاً وَمُنْجَماً كما تقتضي الظروف والأحوال التي مرت بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوقات الوحي . وَاخْتَلَفَ في مدة نَزْوْلُهِ مُفرقاً ؛ لَا خِتَافٌ تَحْدِيدُ الْمَدَةِ الَّتِي أُوحِيَ فِيهَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصَحَّهَا ثَلَاثَ وَعَشْرَوْنَ سَنَةً وَهِيَ مَدَةُ الْوَحْيِ عِنْدَ غَالِبِيَّةِ عَلَمَاءِ الْأُمَّةِ .

وإن قيل لماذا لم يكفي بِإِنْزَالِهِ دفعة واحدة ؟ بِحِيثَ كَانَ إِنْزَالُهُ عَلَى النَّبِيِّ مُباشِرَةً دون الحاجة لَنَزْوْلِهِ مُفرقاً ؟ فَإِنَّ الْقُرْآنَ يُجِيبُ عَلَى هَذَا السُّؤَالَ " قَالَ تَعَالَى : " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً " ، يَعْنِي كَمَا أُنْزَلَ عَلَى مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرَّسُولِ فَأَجَابُهُمُ اللهُ بِقَوْلِهِ : " كَذَلِكَ " أَيْ أُنْزَلْنَاكُمْ كَذَلِكَ مُفرقاً " لِتُثْبِتَ بِهِ فُوَادُكَ " أَيْ لَنْقُويَّ بِهِ قَلْبَكَ ، فَإِنَّ الْوَحْيَ إِذَا كَانَ يَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ كَانَ أَقْوَى

^١) سورة البقرة من الآية (١٨٥) .

^٢) سورة القدر الآية (١) .

^٣) سورة الفرقان من الآية (٣٢) .

^٤) سورة الفرقان من الآية (٣٢) .

للقلب وأشد عناية بالمرسل إليه . ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه وتجديده العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجانب العزيز ؟ فيحدث له من السرور ما تقصير عنه العبارة ؛ ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكتلة نزول جبريل عليه السلام . " ١

أول ما نزل .

لقد وردت روایات عدّة عن أول ما نزل من القرآن على النبي المصطفى العدنان صلی الله عليه وسلم . يظهر من هذه الروایات اختلافات طفيفة في تحديد أول نزول القرآن الكريم . والغالب على هذه الروایات أن أول ما نزل قوله تعالى : " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ " وفيما يلي ذكر لبعض هذه الروایات .

" فأما أوله ففي صحيح البخاري في حديث بدء الوحي ما يقتضي أن أول ما نزل عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ " ثم المدثر ٣ وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث عائشة رضي الله عنها صريحاً وقال صحيح الإسناد لفظ مسلم أول ما نزل من القرآن : " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ " إلى قوله : " عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ " ٤

ووقع في صحيح البخاري إلى قوله : " وَرَبِّكَ الْأَكْرَمُ " وهو مختصر ، وفي الأول ٦ زيادة وهي من الثقة مقبولة " ٥

١) البرهان في علوم القرآن للزرکشي ج ١ / ٢٣١ .

٢) سورة العلق الآية (١) .

٣) صحيح البخاري ج ١ / ٦ ، ٧ بسنده عن عائشة رضي الله عنها .

٤) سورة العلق الآية (٥) .

٥) سورة العلق الآية (٣) .

٦) البرهان في علوم القرآن للزرکشي ١ / ٢٠٦ .

وهذه الرواية تثبت أن أول ما نزل قوله تعالى : "اقرأ باسم ربك الذي خلق" وقد وردت رواية أخرى عن جابر الأنصاري رضي الله عنه في صحيح مسلم ، تثبت أن أول ما نزل سورة المدثر . وطريق الجمع بين الروايتين أن جابر سمع آخر ما حكاه النبي صلى الله عليه وسلم عن بدء الوحي ، وفي أول ما حكاها نزول قوله تعالى : "اقرأ باسم ربك الذي خلق" وآخر ما حكاها صلى الله عليه وسلم نزول : "يا أيتها المدثر" .^٢

وقيل : أول ما نزل سورة الفاتحة . وطريق الجمع بين الأقوال الثلاثة ، أن أول ما نزل من القرآن "اقرأ" ، وأول ما نزل من أوامر التبليغ "يا أيتها المدثر" ، وأول ما نزل من السور سورة الفاتحة . وروي أن أول ما نزل بعد قوله تعالى : "اقرأ باسم ربك الذي خلق" ثلات آيات من سورة نوح ، وثلاث آيات من سورة المدثر ، وروي نزلت سورة نوح بعد إقرأ . يظهر من الرويات السابقة أن أول ما نزل من القرآن قوله تعالى : "اقرأ باسم ربك الذي خلق"

آخر ما نزل :

لقد اختلفت الروايات في تحديد آخر ما نزل من القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلها راويات عن الصحابة رضوان الله عليهم لم ترفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولذلك أذكر ما قيل في هذه الروايات عن آخر ما نزل دون ترجيح لرأي عن رأي فكلها آراء صحابة النبي الذين هم كالضياء والنور بأيمهم اقتدينا بهتديننا والله الحمد والمنة .

^{١)} صحيح مسلم ١ / ١٤٤ .

^{٢)} سورة المدثر الآية (١) .

^{٣)} انظر البرهان في علوم القرآن للزرکشی ١ / ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن آخر ما نزل : "إذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحِ" ، وعن عائشة سورة المائدة وقيل "وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ" ، وقال السدي : آخر ما نزل "فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكِّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ" ، وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما : آخر آية نزلت "يَسْتَقْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيْكُمْ فِي الْكَلَالَةِ" ، وآخر سورة نزلت براءة .
وعن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قال : آخر آية نزلت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ" ، وروى البخاري آخر °
ما نزل آية الربا ٦

" وهذه الأقوال ليس في شيء منها ما رفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويجوز أن يكون قاله قائله بضرب من الاجتهاد وتغليب الظن ، وليس العلم بذلك من فرائض الدين حتى يلزم ما طعن به الطاعون من عدم الضبط ."

ما نزل على لسان بعض الصحابة .

والأصل في هذا الباب ما نزل من القرآن على لسان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو نوع من أسباب النزول فيه أمثلة توضيحية لأسباب النزول ، وفيه بيان لما نزل على لسان الصحابة رضوان الله عليهم .

^١ سورة النصر الآية (١) .

^٢ سورة البقرة من الآية (٢٨١) .

^٣ سورة التوبه الآية (١٢٩) .

^٤ سورة النساء من الآية (١٧٦) .

^٥ سورة التوبه من الآية (١٢٨) .

^٦ انظر البرهان في علوم القرآن ج ١ / ٢٠٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ .

^٧ المرجع السابق نفسه ١ / ٢١٠ .

ومن ذلك ما رواه الإمام البخاري في صحيحه من حديث عمر رضي الله عنه قال البخاري : " حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَوْنَى قَالَ حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ عَنْ حُمَيْدٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ عُمَرُ : وَاقْفُتْ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَتَحَدُنَا مِنْ مَقَامٍ إِبْرَاهِيمَ مُصَلَّى فَنَزَلْتُ " وَاتَّحَدُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلَّى " وَآيَةُ الْحِجَابِ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَمْرَتَ نِسَاءَكَ أَنْ يَخْتَجِبْنَ فَإِنَّهُ يُكَلِّمُهُنَّ الْبُرُّ وَالْفَاجِرُ فَنَزَلْتُ آيَةُ الْحِجَابِ وَاجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُنَّ : " عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقْكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْوَاجًا خَيْرًا مُنْكَنًّ " فَنَرَأَتْ ٣ هَذِهِ الْآيَةَ . "

" وروي أن يهوديا لقي عمر بن الخطاب فقال : إن جبريل الذي يذكر صاحبكم عدو لنا فقال عمر : من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين . قال : فنزلت على لسان عمر . وروي أن سعد بن معاذ لما سمع ما قيل في أمر عائشة ، قال : سبحانك هذا بھتان عظيم ، فنزلت كذلك . وقال ابن سعد في الطبقات : أخبرنا الواقدی حدثني إبراهیم بن محمد ابن شرحبیل العبدري عن أبيه قال : حمل مصعب بن عمیر اللواء يوم أحد فقطعت يده اليمنی ، فأخذ اللواء بيده اليسرى وهو يقول : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . ثم قطعت يده اليسرى فحنا على اللواء ، وضمه بعضاً إلى صدره ، وهو يقول : وما محمد إلا رسول ثم قتل فسقط اللواء . قال محمد بن شرحبیل : وما نزلت هذه الآية " وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ

١) سورة البقرة من الآية (١٢٥) .

٢) سورة التحريم من الآية (٥) .

٣) صحيح البخاري ١ / ٨٩ .

مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى
عَقِبِيهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ " يومئذ حتى نزلت بعد ^١
ذلك . " ^٢

^١) سورة آل عمران الآية (١٤٤) .

^٢) الإنegan في علوم القرآن للسيوطى ١ / ٣٦ .

ما تكرر نزوله .

ورد في كثير من الروايات تكرر نزول بعض آيات القرآن الكريم ، بمعنى أن هناك آيات نزلت مرة بعد مرة ، وظهر ذلك من نزولها بمكة ، ثم نزولها بالمدينة مرة أخرى . وفيما يلي أمثلة لما تكرر نزوله من آي الذكر الحكيم .

١ - أخرج البخاري في صحيحه من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فأنزلت عليه " واقم الصلاة طرف النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذكريين " قال الرجل ألي هذه قال لمن عمل بها من أمتى " وهذا كان بالمدينة وسورة هود مكية فدل ذلك على تكرار نزولها .

٢ - روی في قوله تعالى : " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ " أنها نزلت لما سأله اليهود عن الروح ، وهو في المدينة . ومعلوم أن هذه في سورة الإسراء وهي مكية بالاتفاق ، ويدل على أن اليهود سألوه في المدينة ما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود قال : " بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي خَرْبِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ يَتَوَكَّلُ عَلَى عَسِيبٍ مَعَهُ فَمَرَّ بِنَفْرٍ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا تَسْأَلُوهُ لَا يَحِيُءُ فِيهِ بِشِيءٍ تَكْرُهُونَهُ فَقَالَ : بَعْضُهُمْ لِنَسَائِنَهُ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَقَالَ : يَا أَبَا الْقَاسِمِ

^١) سورة هود الآية (١١٤) .

^٢) صحيح البخاري ٦ / ٧٥ حديث رقم ٤٦٨٧ .

^٣) سورة الإسراء من الآية (٨٥) .

"**مَا الرُّوحُ فَسَكَتَ ، فَقُلْتُ : إِنَّهُ يُوَحِّي إِلَيْهِ فَقُمْتُ فَلَمَّا انْجَلَى عَنْهُ قَالَ :**
وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي " وَمَا أُوتُوا مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا "

٣ - كذلك ما ورد في " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " أنها جواب للمشركين بمكة ، وأنها جواب لأهل الكتاب بالمدينة .

والحكمة في هذا كله أنه قد يحدث سبب من سؤال ، أو حادثة تقتضي نزول آية ، وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها فتؤدي تلك الآية بعينها إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تذكيراً لهم بها ، وبأنها تتضمن هذه ، والعالم قد يحدث له حادث فيذكر أحاديث وآيات تتضمن الحكم في تلك الواقعة ، وإن لم تكن خطرت له تلك الحادثة قبل مع حفظه لذلك النص . ^٤

معرفة ما نزل مفرقاً وما نزل جمعاً:

والمقصود بما نزل مفرقاً أي نزول السورة على مراحل ، فكثير من القرآن نزل مفرقاً آيات آيات ، ولم تنزل السورة كاملة ، أما ما نزل جمعاً فهو نزول السورة ، وأو أكثر دفعة واحدة ، فهناك سور نزلت مرة واحدة ، وهناك أكثر من سورة نزلتا معاً ، ومثال لما نزل جمعاً سورة الأنعام نزلت ليلاً معها سبعون ألف ملك يجاؤرون بالتسبيح ، ومنها سورة مريم نزلت دفعة واحدة ونزلت ليلاً أيضاً . ومنه أيضاً سورة الفاتحة والإخلاص والكوثر وتبت يداً ولم يكن النصر ، ونزلت المعوذتان معاً مرة واحدة .

^١ سورة الإسراء من الآية (٨٥) وكمال الآية : " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيْشُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا " .

^٢ صحيح البخاري ١ / ٣٧ حديث رقم ١٢٥ .

^٣ سورة الإخلاص الآية (١) .

^٤ البرهان في علوم القرآن للزرκشي ١ / ٣٠ ، ٣١ .

وأما مانزل مفرقا فهو غالب القرآن ومنه في سور القصار سورة العلق نزل منها أولا من قوله تعالى : " افْرَا بِاسْمِ رَبِّكَ " إلى قوله : " عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ " ومنه سورة الضحى ، وأول ما نزل منها قوله تعالى : " وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلٌ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَعَكَ رَبِّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبِّكَ فَتَرْضَىٰ " .
٢
ما نزل مشيناً وما نزل مفرداً .

وما نزل مشيناً أي ما نزل به جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه من الملائكة ما شاء الله يشيعون السورة ، أو الآيات من القرآن . وما نزل مفردا هو ما نزل به جبريل عليه السلام دون غيره من الملائكة ، ولقد رويت في ذلك رويات منها القوي ومنها الضعيف ملخصها أن ما نزل مشيناً من القرآن سورة الأنعام شيعها سبعون ألف ملك ، وفاتحة الكتاب نزلت ومعها ثمانون ألف ملك ، وآية الكرسي نزلت ومعها ثلاثون ألف ملك ، وسورة يس نزلت ومعها ثلاثون ألف ملك ، وسائل من أرسلنا من قبلك من رسالنا (سورة الزخرف) نزلت ومعها عشرون ألف ملك ، والبقرة سلام القرآن وذرؤته نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا ، وسورة الكهف شيعها سبعون ألف ملك . وسائر القرآن نزل به جبريل مفردا بلا

٣

تشيع .

١) سورة العلق الآية (٥) .

٢) سورة الضحى الآيات (١ : ٥) . انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطى ١ / ٣٨ .

٣) انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطى ١ / ٣٨ ، ٣٩ .

الفصل الثالث

أسباب النزول وما يتعلق بها من أحكام .

وبه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: معنى أسباب النزول وفوائدها وما

يعتمد عليه في معرفتها .

المبحث الثاني: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

تعدد الروايات في سبب النزول .

المبحث الثالث : تعدد النزول مع وحدة السبب .

تعدد ما نزل في شخص واحد .

المبحث الأول
معنى أسباب النزول
وفوائدها وما يعتمد
عليه في معرفتها .

إن أسباب نزول القرآن علم قائم بذاته ؛ ولذا صنف القدامى كتب منفردة للحديث عن أسباب النزول ، ومن أشهر هذه التصانيف أسباب النزول للواحدى وفيما يلي الكلام عن تعريف أسباب النزول وفوائده .

أولاً : معنى أسباب النزول .

أسباب النزول أي السبب المباشر الذي نزلت من أجله آية ، أو بعض آيات من القرآن الكريم ؛ حيث أنه هناك آيات نزلت لسبب معين ، وهناك من الآيات ما نزلت دون سبب ؛ وإنما للهداية والإرشاد ، أو بيان حكم معين ، أو تعريف بقصص الأنبياء والأقوام السابقين .

فوائد أسباب النزول .

إن لأسباب النزول فوائد كثيرة ذكرها صاحب مناهل العرفان كالتالي :

"الفائدة الأولى:

معرفة حكمة الله تعالى على التعين فيما شرعه بالتنزيل ، وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن. أما المؤمن فيزداد إيمانا على إيمانه ، ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله ، والعمل بكتابه ؛ لما يتجلّى له من المصالح والمزايا التي نيطت بهذه الأحكام ، ومن أحلها جاء هذا التنزيل. وأما الكافر فتسوّقه تلك الحكم الباهرة إلى الإيمان إن كان منصفا . حين يعلم أن هذا التشريع الإسلامي قام على رعاية مصالح الإنسان لا على الاستبداد والتحكم والطغيان ؛ خصوصا إذا لاحظ سير ذلك التشريع وتدرجه في موضوع واحد. وحسبك شاهدا على هذا تحريم الخمر ، وما نزل فيه.

الفائدة الثانية :

الاستعانة على فهم الآية ، ودفع الإشكال عنها. حتى لقد قال الواهي: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها. وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالسبب .

ومثال لذلك : الأول : قال الله تعالى في سورة البقرة: " وَلِلَّهِ الْمَسْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُوا فَشَّمْ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيهِمْ " فهذا اللفظ الكريم يدل بظاهره على أن للإنسان أن يصلى إلى آية جهة شاء ، ولا يجب عليه أن يولي وجهه شطر البيت الحرام لا في سفر ولا حضر. لكن إذا علم أن هذه الآية نازلة في نافلة السفر خاصة ، أو فيمن صلى باجتهاده ثم بان له خطئه . تبين له أن الظاهر غير مراد إنما المراد التخفيف على خصوص المسافر في صلاة النافلة ، أو على المحتهد في القبلة إذا صلى وتبيّن له خطئه. روى عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن هذه الآية نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت. وقيل: عميت القبلة على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة فلما أصبحوا تبيّنوا خطأهم فعدروا ...

المثال الثاني: روي في الصحيح أن مروان بن الحكم أشكل عليه معنى قوله تعالى: " لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُبَحِّبُونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ بِمَفَارِضَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " .^٢

^١) سورة البقرة الآية (١١٥) .

^٢) سورة آل عمران الآية (١٨٨) .

وقال: لئن كان كل أمرٍ فرح بما أتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معدباً لعذبين أجمعون. وبقي في إشكاله هذا ؛ حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره وأروه أنهم أخربوه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ؛ أي طلبوا منه أن يحمد لهم على ما فعلوا. هنالك زال الإشكال عنه ، وفهم مراد الله من كلامه هذا ووعيده.

الفائدة الثالثة:

دفع توهם الحصر عما يفيد بظاهره الحصر ، نحو قوله سبحانه في سورة الأنعام: " قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ حِنْزِيرٍ فِإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ " . ذهب الشافعي إلى أن الحصر في هذه الآية غير مقصود ، واستعان على دفع توهمه بأنها نزلت بسبب أولئك الكفار الذين أبوا إلا أن يحرموا ما أحل الله ، ويحلوا ما حرم الله ؛ عناداً منهم ومحادة الله ورسوله فنزلت الآية بهذا الحصر الصوري مشادة لهم، ومحادة من الله ورسوله لا قصداً إلى حقيقة الحصر.

نقل السبكي عن الشافعي أنه قال ما معناه: إن الكفار لما حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله ، وكانوا على المضادة والمحادة جاءت الآية مناقضة لغرضهم. فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه ، ولا حرام إلا ما أحلتموه. نازلاً منزلة من يقول لك: لا تأكل اليوم حلاوة فتقول : لا آكل اليوم إلا حلاوة . والغرض المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة. فكأنه تعالى قال: لا حرام إلا ما أحلتموه

من الميتة ، والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، ولم يقصد حل ما ورائه إذ القصد إثبات التحرم لا إثبات الحل .

الفائدة الرابعة :

معرفة من نزلت فيه الآية على التعين ؟ حتى لا يشتبه بغيره فيتهم البريء ، وويرأ المريب مثلاً . ولهذا ردت عائشة على مروان حين اتهم أحدها عبد الرحمن بن أبي بكر بأنه الذي نزلت فيه آية " **وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدِيهِ أَفْ لَكُمَا** " . وقالت : والله ما هو به ، ولو شئت أن تسميه لسميتها .^١

الفائدة الخامسة : تيسير الحفظ ، وتسهيل الفهم ، وثبتت الوحي في ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها . وذلك لأن ربط الأسباب بالأسباب ، والأحكام بالحوادث ، والحوادث بالأشخاص ، والأزمنة ، والأمكنة . كل أولئك من دواعي تقرر الأشياء وانتقاشهما في الذهن وسهولة استذكارها عند استذكار مقارناتها في الفكر ، وذلك هو قانون تداعي المعاني المقرر في علم النفس .^٢

ثانياً : ما يعتمد عليه في معرفة سبب النزول

لا يقبل القول في أسباب النزول إلا بالنقل الصحيح عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث " قالوا واحدي : لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية ، والسماع من شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبخثروا عن علمها وقد قال محمد بن سيرين : سألت عبيدة عن آية من القرآن ، فقال : اتق الله ، وقل سدادا ذهب الذين يعلمون فهم أنزل الله القرآن . وقال غيره : معرفة سبب النزول أمر يحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا .

^١) سورة الأحقاف من الآية (١٧) .

^٢) منهال العرفان في علوم القرآن ١ / ٩١ : ٩٥ .

قال الحكم في علوم الحديث : إذا أخبر الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا ، فإنه حديث مسنّد ، ومشى على هذا ابن الصلاح ، وغيره .

وقال ابن تيمية : قولهم نزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة سبب النزول ، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية ، وإن لم يكن السبب . كما تقول : عني بهذه الآية كذا . وقد تنازع العلماء في قول الصحابي نزلت هذه الآية في كذا هل يجري مجرى المسند كما لو ذكر السبب الذي أنزلت لأجله ، أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند . فالبخاري يدخله في المسند ، وغيره لا يدخله فيه ، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد ، وغيره . بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند .

قلت : والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه ؟ ليخرج ما ذكره الواعدي في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة به ، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء . بل هو من باب الإخبار عن الواقع الماضية كذكر قصة قوم نوح ، وعاد ، وثعود ، وبناء البيت ، ونحو ذلك . وكذلك .

المبحث الثاني :

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .
تعدد الروايات في سبب النزول .

أولاً : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب :

" معناه أن يأتي الجواب أعم من السبب ، ويكون السبب أخص من لفظ الجواب. وذلك حائز عقلا ، وواقع فعلا ؛ لأنه لا محظور فيه ، ولا قصور . بل إن عمومه مع خصوص سببه موف بالغاية ومؤد للمقصود وزيادة .

بيد أن العلماء اختلفوا في حكمه أعموم اللفظ هو المعتبر أم خصوص السبب؟. ذهب الجمهور إلى أن الحكم يتناول كل أفراد اللفظ سواء منها أفراد السبب وغير أفراد السبب. ولنضرب لك مثلا: حادثة قذف هلال بن أمية لزوجته وقد نزل فيها قول الله تعالى: " **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ** " الخ نلاحظ فيها أن السبب خاص وهو قذف هلال لزوجته ؛ لكن جاءت الآية النازلة فيه بلفظ عام - كما ترى - وهو لفظ " **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ** " . وهو اسم موصول والموصول من صيغ العموم وقد جاء الحكم بالملائنة في الآية محمولا عليه من غير تخصيص. فيتناوله عمومه أفراد القاذفين في أزواجهم ، ولم يجدوا شهداء إلا أنفسهم سواء منهم هلال ابن أمية صاحب السبب ، أو غيره . ولا تحتاج في سحب هذا الحكم على غير هلال إلى دليل من قياس أو سواه بل هو ثابت بعموم هذا النص. ومعلوم أنه لا قياس ولا اجتهاد مع النص. ذلك مذهب الجمهور.

وقال غير الجمهور: إن العبرة بخصوص السبب. ومعنى هذا أن لفظ الآية يكون مقصورا على الحادثة التي نزل هو لأجلها . أما أشباهها فلا يعلم حكمها من نص الآية إنما يعلم بدليل مستأنف آخر هو القياس ، إذا استوفى شروطه ، أو قوله صلى

^١ سورة النور من الآية (٦) .

الله عليه وسلم: "حکمي على الواحد حکمي على الجماعة". فآية القذف السابقة النازلة بسبب حادثة هلال مع زوجه خاصة بهذه الحادثة وحدها على هذا الرأي. أما حکم غيرها مما يشبهها فإنما يعرف قياساً عليها أو عملاً بالحديث المذكور.

ويجب أن نلاحظ أن هذا الخلاف القائم بين الجمهور وغيرهم محله إذا لم تقم قرينة على تحصيص لفظ الآية العام بسبب نزوله . أما إذا قامت تلك القرينة فإن الحكم يكون مقصوراً على سببه لا محالة بإجماع العلماء.

كما يجب أن نلاحظ أيضاً أن حکم النص العام الوارد على سبب يتعدى عند هؤلاء وهؤلاء إلى أفراد غير السبب . بيد أن الجمهور يقولون : إنه يتناولهم بهذا النص نفسه ، وغير الجمهور يقولون : إنه لا يتناولهم إلا قياساً أو بنص آخر كال الحديث المعروف: حکمي على الواحد حکمي على الجماعة.

وإلى هذا المعنى يشير ابن تيمية بقوله: قد يحييء كثيراً من هذا الباب قوله: هذه الآية نزلت في كذا لا سيما إن كان المذكور شخصاً كقولهم: إن آية الظهار نزلت في امرأة قيس بن ثابت ، وإن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله ، وإن آية قوله: "وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ" نزلت فيبني قريظة ، والتضير . ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة ، أو في قوم من اليهود والنصارى أو في قوم من المؤمنين. فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حکم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم ، فإن هذا لا ي قوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق. والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب: هل يختص بسببه؟

^١ سورة المائدة من الآية (٤٩) .

لم يقل أحد إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين. وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص فتعم ما يشبهه ، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ. والآلية التي لها سبب معين إن كانت أمراً أو نهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره من كان يمتنعه. ولعل ثمرة هذا الخلاف ترجع إلى أمرتين: أحدهما : أن الحكم على أفراد غير السبب مدلوّن عليه بالنص النازل فيه عند الجمهور. وذلك النص قطعي المتن اتفاقاً وقد يكون مع ذلك قطعي الدلالة. أما غير الجمهور فالحكم عندهم على غير أفراد السبب ليس مدلاً عليه بذلك النص ، بل القياس أو الحديث المعروف وكلاهما غير قطعي.

الثاني : أن أفراد غير السبب كلها يتناولها الحكم عند الجمهور ما دام اللفظ قد تناولها. أما غير الجمهور فلا يسجّبون الحكم إلا على ما استوفى شروط القياس منها دون سواه إن أخذوا فيه بالقياس.

أدلة الجمهور

استدل الجمهور على مذهبهم بأدلة ثلاثة: الأولى : أنها نعلم أن لفظ الشارع وحده هو الحجة والدليل دون ما احتف به من سؤال ، أو سبب . فلا وجه إذن ؛ لأن تخصيص اللفظ بالسبب. وكيف يسوغ أن يجعل ما ليس حجة في الشرع متحكماً بالتحصيص على ما هو الحجة في الشرع؟

والدليل على أن لفظ الشارع وحده هو الحجة أن الشارع قد يصرف النظر عن السؤال ويعدل بالجواب عن سenn السؤال حكمة نحو قوله تعالى في سورة البقرة: "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدَّيْنُ وَالْأَقْرَبُينَ وَالْيَتَامَى

وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّيِّلِ" فإن ظاهر هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن بيان ما ينفقونه فجاء الجواب ببيان من ينفقون عليهم. وذلك من أسلوب الحكيم؛ لأن معرفة مصارف النفقة والصدقة أهم من معرفة المصروف فيهما فإن إصلاح الجماعة البشرية لا يكون إلا عن طريق تنظيم النفقة والإحسان على أساس توجيههما إلى المستحقين دون سواهم. وهذا وجه في الآية نراه وجيهها، وإن كانت الآية قد أشارت إشارة خفيفة إلى بيان ما ينفقونه بقوله سبحانه "مِنْ خَيْرٍ" غير أنها إشارة إجمالية لا تشبع حاجة السؤال.

ويمكن أن تنظم من هذا دليلاً منطقياً من باب القياس الاقتراني تقريره هكذا: اللفظ العام الوارد على سبب خاص هو الحاجة وحده عند الشارع. وكل ما كان كذلك يعتبر عمومه، فاللفظ العام الوارد على سبب خاص يعتبر عمومه. وهو المطلوب...

الدليل الثاني: أن الأصل هو حمل الألفاظ على معانيها المبتداة منها عند الإطلاق أي عند عدم وجود صارف يصرف عن ذلك المبتادر، ولا صارف للفظ هنا عن إرادة العموم فلا جرم يبقى على عمومه. أما ما يتوهمه المخالفون من أن خصوص السبب صارف عن إرادة العموم فمدفع عن بأن مجرد خصوص السبب لا يستلزم إخراج غير السبب من تناول اللفظ العام إياه. فلا يصلح أن يكون قرينة مانعة من إرادة ما وضع له اللفظ العام. وهو العموم الشامل لجميع الأفراد.

^١ سورة البقرة من الآية (٢١٥).

ويمكن أن تنظم من هذا الدليل قياسا اقترانيا هكذا: اللفظ العام الوارد على سبب خاص يتبارد منه العموم عند الإطلاق ، وكل ما كان كذلك يبقى على عمومه . فاللفظ العام الوارد على سبب خاص يبقى على عمومه وهو المطلوب .

ويمكن أن تنظم من ذلك الدليل قياسا استثنائيا أيضا : لو لم يكن اللفظ العام الوارد على سبب خاص باقيا على عمومه عند الإطلاق للزم استعمال اللفظ في غير ما وضع له بلا قرينة ؛ لكن التالي باطل فبطل المقدم ، وثبت نقضه وهو أن اللفظ العام الوارد على سبب خاص باق على عمومه عند الإطلاق . وذلك هو المطلوب .

الدليل الثالث: احتجاج الصحابة والمجتهدين فيسائر الأعصار والأمسكار بعموم تلك الألفاظ الواردة على أسباب خاصة في وقائع وحوادث كثيرة من غير حاجة إلى قياس أو استدلال بدليل آخر . وكيف ينكر هذا؟ وأكثر أصول الشرع خرجت على أسباب خاصة وبرغم خصوص تلك الأسباب قد فهموا من الألفاظ النازلة فيها حقيقة العموم ، ثم صاغوا من عموماتها كثيرا من الأصول . فاستدلوا بأية السرقة على وجوب قطع كل يد مع أنها نازلة في خصوص سرقة الجبن أو رداء صفوان . واحتجوا بآيات الظهور على وجوب الكفارة المذكورة فيها والعمل بأحكامها على كل من ظاهر مع أنها نازلة في خصوص من عرفت قبل . ، وكذلك برهنوا بآيات اللعان على شمول حكمه لكل من قذف زوجته ولم يكن معه شهود على حين أنها نازلة في خصوص من ذكرنا سابقا .

ويمكن أن تنظم من هذا الدليل قياسا اقترانيا نصه: عموم اللفظ الوارد على سبب خاص قد اعتبره الصحابة والمجتهدون وكل ما كان كذلك فهو المعتبر . فعموم اللفظ الوارد على سبب خاص هو المعتبر . ويمكن أن تنظم منه دليلا استثنائيا نصه : لو لم

يُكَن عِمُوم الْلَفْظ الْوَارِد عَلَى سَبَب خَاص هُوَ الْمُعْتَبَر لِمَا اعْتَدَهُ الصَّحَابَةُ وَالْجَمَاتُهُوَنَّ
 ١ لِكُنَّ التَّالِي بَاطِلٌ فِي بَطْلِ الْمُقْدَمِ وَثَبِّتْ نَقْيَضَهُ وَهُوَ الْمُطَلُوبُ." تَعْدَدُ الرَّوَايَاتُ فِي سَبَبِ النَّزُولِ .

"كَثِيرًا مَا يذَكُرُ الْمُفَسِّرُونَ لِنَزُولِ الْآيَةِ أَسْبَابًا مُتَعَدِّدةً ، وَطَرِيقُ الاعْتِمَادِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُنَظَّرُ إِلَى الْعِبَارَةِ الْوَاقِعَةِ ، فَإِنْ عَبَرَ أَحَدُهُمْ بِقُولِهِ : نَزَّلَتْ فِي كَذَا ، وَالآخَرُ نَزَّلَتْ فِي كَذَا ، وَذَكَرَ أَمْرًا آخَرَ فَإِنْ هَذَا يَرَادُ بِهِ التَّفْسِيرُ لَا ذَكْرٌ لِسَبَبِ النَّزُولِ . فَلَا مُنَافَاةٌ بَيْنَ قَوْلِهِمَا إِذَا كَانَ الْلَفْظُ يَتَنَوَّلُ بَيْنَهُمَا . وَإِنْ عَبَرَ وَاحِدٌ بِقُولِهِ : نَزَّلَتْ فِي كَذَا ، وَصَرَحَ الْآخَرُ بِذَكْرِ سَبَبِ حَلَافَهُ فَهُوَ الْمُعْتَمَدُ . وَذَاكَ اسْتِبَاطُ مَثَالِهِ مَا أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ عَنْ أَبْنَى عُمَرَ قَالَ : أَنْزَلْتَ " نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ " فِي إِتِيَانِ النِّسَاءِ فِي أَدْبَارِهِنَّ وَتَقْدِيمِهِنَّ عَنْ جَابِرِ التَّصْرِيحِ بِذَكْرِ سَبَبِ حَلَافَهُ ، فَالْمُعْتَمَدُ حَدِيثُ جَابِرٍ ؛ لِأَنَّهُ نَقَلَ وَقُولَّ أَبْنَى عُمَرَ اسْتِبَاطَ مِنْهُ ، وَقَدْ وَهَمَهُ فِيهِ أَبْنَى عَبَّاسٌ ، وَذَكَرَ مِثْلُ حَدِيثِ جَابِرٍ كَمَا أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدُ وَالحاكِمُ .

وَإِنْ ذَكَرَ وَاحِدٌ سَبَبًا ، وَآخَرُ سَبَبًا غَيْرَهُ ؛ فَإِنْ كَانَ إِسْنَادُ أَحَدِهِمَا صَحِيحًا دُونَ الْآخَرِ فَالصَّحِيحُ الْمُعْتَمَدُ . مَثَالُهُ مَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانُ وَغَيْرُهُمَا عَنْ جَنْدِبِ اشْتِكَى النَّبِيُّ فَلَمْ يَقُمْ لِيَلَةً أَوْ لِيَلَتَيْنِ فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ : يَا مُحَمَّدَ مَا أَرَى شَيْطَانَكَ إِلَّا قَدْ تَرَكَكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ " وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلٌ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ " وَأَخْرَجَ الطَّبرَانِيُّ وَابْنُ أَبِيٍّ شِيَبَةُ عَنْ حَفْصَ بْنِ مَيسِّرَةَ عَنْ أُمِّهَا وَكَانَتْ

^١) مَنَاهِلُ الْعِرْفَانِ فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ ١ / ٩١ : ٩٥ .

^٢) سُورَةُ الْبَقَرَةِ مِنَ الْآيَاتِ (٢٢٣) .

^٣) سُورَةُ الضُّحَىِ الْآيَاتِ (١ : ٣) .

خادم رسول الله أن جروا دخل بيت النبي ، فدخل تحت السرير فمات فمكث النبي أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي . فقال يا خولة : ما حدد في بيت رسول الله جبريل لا يأتيني فقلت في نفسي : لو هيأت البيت ، وكنسته فأهويت بالمحكمة تحت السرير فأخرجت الجرو ؛ فجاء النبي ترعد لحيته ، وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرعدة فأنزل الله : " **وَالضُّحَىٰ** (١) " إلى قوله : " **وَلَسْوَفَ يُعْطِيكَ رِبُّكَ فَتَرْضَىٰ** " .

وقال ابن حجر في شرح البخاري : قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة لكن كونها سبب نزول الآية غريب ، وفي إسناده من لا يعرف فالمعتمد ما في الصحيح .
ومن أمثلته أيضاً ما أخرجه ابن حجر وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن رسول الله لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود ، فاستقبله بضعة عشر شهراً . كان يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو الله وينظر إلى السماء ، فأنزل الله : " **فَوَلُوا وُجُوهُكُمْ شَطْرَهُ** " فارتاد من ذلك اليهود ، وقالوا : " **مَا وَلَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا** " فأنزل الله : " **قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ** " .

وأخرج الحاكم وغيره عن ابن عمر قال : نزلت " **فَإِنَّمَا تُؤْلِوا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**" أن تصلي حياماً توجهت بك راحتلك في التطوع .

^١) سورة الضحى الآية (٥) .

^٢) سورة البقرة من الآية (١٤٤) .

^٣) سورة البقرة من الآية (١٤٢) .

^٤) سورة البقرة من الآية (١٤٢) .

^٥) سورة البقرة من الآية (١١٥) .

وأخرج الترمذى وضعفه من حديث عامر بن ربيعة قال كنا في سفر في ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة فصلى كل رجل منا على حاله فلما أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله فنزلت .

وأخرج الدارقطنى نحوه من حديث جابر بسنده ضعيف أيضا .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال لما نزلت : " ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لِكُمْ " قالوا إلى أين فنزلت مرسل .

وأخرج عن قتادة أن النبي قال : إن أخاك لكم قد مات فصلوا عليه ، فقالوا: إنه كان لا يصلى إلى القبلة فنزلت معرضة غريب جدا .

فهذه خمسة أسباب مختلفة ، وأضعفها الأخير ؛ لإعظامه ، ثم ما قبله ؛ لإرساله ، ثم ما قبله ؛ لضعف رواته ، والثاني صحيح لكنه قال قد أنزلت في كذا ولم يصرح بالسبب . والأول صحيح الإسناد وصح فيه بذكر السبب فهو المعتمد .

ومن أمثلته أيضا ما أخرجه ابن مردويه وابن أبي حاتم من طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس قال : خرج أمية بن خلف وأبو جهل بن هشام ، ورجال من قريش فأتوا رسول الله فقالوا : يا محمد تعال فتمسح بالآهنتنا ، وندخل معك في دينك ، وكان يحب إسلام قومه فرق لهم فأنزل الله : " وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتُونَكَ عَنِ الدِّيَنِ أَوْ حَيْنَا إِلَيْكَ " .^٢

وأخرج ابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس أن ثقيفا قالوا للنبي : أجلنا سنة حتى يهدى لآهنتنا . فإذا قبضنا الذي يهدى لها أحرزناه ، ثم أسلمنا فهم أن يؤجلهم فنزلت . هذا يقتضي نزولها بالمدينة ، وإسناده ضعيف ، والأول يقتضي

^١ سورة غافر من الآية (٦٠) .

^٢ سورة الإسراء من الآية (٧٣) .

نزو لها بمكة ، وإسناده حسن وله شاهد عند أبي الشيخ عن سعيد بن جبير يرتفع إلى درجة الصحيح فهو المعتمد .

الحال الرابع : أن يستوي الإسنادات في الصحة فيرجع أحدهما بكون راويه حاضر القصة ، أو نحو ذلك من وجوه الترجيحات . مثاله ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال : كت أمشي مع النبي بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب فمر بنفر من اليهود ، فقال بعضهم : لو سألتهموه فقالوا حدثنا عن الروح فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى إليه حتى صعد الوحي ، ثم قال : " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِّ
الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيِّ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا " .
^١

وأخرج الترمذى وصححه عن ابن عباس قال : قالت : قريش لليهود اعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل . فقالوا : أسأله عن الروح فسألوه فأنزل الله : " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ
الرُّوحِ " الآية فهذا يقتضي أنها نزلت بمكة ، والأول خلافه ، وقد رجح بأن ما رواه البخاري أصح من غيره ، وبأن ابن مسعود كان حاضر القصة .

الحال الخامس : أن يمكن نزو لها عقب السبيبين ، والأسباب المذكورة بآلا تكون معلومة التباعد . كما في الآيات السابقة فيحمل على ذلك . ومثاله ما أخرجه البخاري من طريق عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي بشريك ابن سحماء . فقال النبي : البينة أو حد في ظهرك . فقال : يا رسول الله إذا رأى أحدهنا مع امرأته رجلاً ينطلق يتلمس البينة ، فأنزل عليه : " وَالَّذِينَ يَرْمُونَ
أَزْوَاجَهُمْ " ، حتى بلغ " إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ " .
^٢

^١ سورة الإسراء الآية (٨٥) .

^٢ سورة النور من الآية (٦) .

^٣ سورة النور من الآية (٩) .

وأخرج الشیخان عن سهل بن سعد قال : جاء عمر إلى عاصم بن عدي فقال : اسأل رسول الله أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فقتلها أيقتل به أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله فعاب السائل ، فأخبر عاصم عمرًا . فقال : والله لآتين رسول الله فلأسأله فأتاه فقال : إنه قد أنزل فيك وفي صاحبتك قرآنًا . . . وجمع بينهما بأن أول ما وقع له ذلك هلال ، وصادف مجيء عمر أيضًا فنزلت في شأنهما معا ، وإلى هذا جنح النووي ، وبسبقه الخطيب فقال : لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد .

وأخرج البزار عن حذيفة قال : قال رسول الله لأبي بكر : لو رأيت مع أم رومان رجلاً ما كنت فاعلاً به . قال : شرا . قال : فأنت يا عمر . قال : كنت أقول عن الله الأعجز فإنه لخيث فنزلت . قال ابن حجر : لا مانع من تعدد الأسباب الحال السادس : ألا يمكن ذلك فيحمل على تعدد النزول ، وتكرره مثاله ما أخرجه الشیخان عن المسیب قال : لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله وعنده أبو جهل ، وعبد الله بن أبي أمیة ، فقال : أي عم قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله . فقال أبو جهل وعبد الله : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزالا يكلمانه حتى قال : هو على ملة عبد المطلب فقال النبي : لاستغفرن لك ما لم أنه عنه ؛ فنزلت : " مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ " ^١

^١ سورة التوبة من الآية (١١٣) .

وأخرج الترمذى وحسنه عن علي قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت : تستغفر لأبويك وهما مشركان ! فقال : استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك فذكرت ذلك لرسول الله فنزلت .

وأخرج الحاكم وغيره عن ابن مسعود قال : خرج النبي يوما إلى المقابر فجلس إلى قبر منها فناجاه طويلا ، ثم بكى . فقال : إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي فأنزل علي : " مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ " فنجمع بين هذه الأحاديث بتعدد النزول .

ومن أمثلته أيضا ما أخرجه البيهقي والبزار عن أبي هريرة أن النبي وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به . فقال : لأمثلن بسبعين منهم مكانك ، فنزل جبريل والنبي واقف بخواتيم سورة النحل : " وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ " إلى آخر السورة .

وأخرج الترمذى والحاكم عن أبي بن كعب قال : لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون ، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة . فمثلوا بهم فقالت الأنصار : لئن أص比نا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم . فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله " وَإِنْ عَاقَبْتُمْ " الآية . فظاهره تأخير نزولها إلى الفتح ، وفي الحديث الذي قبله نزولها بأحد . ويجمع بين اروایتين بأنها نزلت أولا بمكة قبل الهجرة مع السورة ؛ لأنها مكية ثم ثانية بأحد ، ثم ثالثا يوم الفتح تذكيرا من الله لعباده وجعل ابن كثير من هذا القسم آية الروح .

و عكس ما تقدم أن يذكر سبب واحد في نزول آيات متفرقة ، ولا إشكال في ذلك فقد ينزل في الواقعة الواحدة آيات عديدة في سور شتى . مثاله ما أخرجه الترمذى والحاكم عن أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله : " فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيقُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكْرٍ أَوْ أُنْثَى " إلى آخر الآية .^١

وأخرج الحاكم عنها أيضاً قالت : قلت : يا رسول الله تذكر الرجال ، ولا تذكر النساء فنزلت : " إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ " ، ونزلت : " أَنِّي لَا أُضِيقُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكْرٍ أَوْ أُنْثَى " وأخرج أيضاً عنها أنها قالت : يغزو الرجال ، ولا تغزو النساء ، وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله : " وَلَا تَتَمَنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ " ، وأنزل : " إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ " .^٤

^١ سورة آل عمران من الآية (١٩٥) .

^٢ سورة الأحزاب من الآية (٣٥) .

^٣ سورة النساء من الآية (٣٢) .

^٤ الإتقان في علوم القرآن للسيوطى ١ / ٣٠ : ٣٢ .

المبحث الثالث

تعدد النزول مع وحدة السبب .

المناسبات بين الآيات .

تعدد النزول مع وحدة السبب .

" قد يكون أمر واحد سبباً لنزول آيتين أو آيات متعددة ، ولا مانع من ذلك ؛ لأنَّه لا ينافي الحكمة في إقناع الناس ، وهداية الخلق ، وبيان الحق عند الحاجة . بل إنه قد يكون أبلغ في الإقناع وأظهر في البيان .

مثال السبب الواحد تنزل فيه آياتان ما أخرجه ابن جرير الطبراني والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في ظل شجرة فقال: "إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان فإذا جاء فلا تكلموه" . فلم يلتبوا أن طلع رجل أزرق العينين فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "علام تستحي أنت وأصحابك؟" فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلقوه بالله ما قالوا ؟ حتى تجاوز عنهم . فأنزل الله: **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةً الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ" .^١**

وأخرج الحاكم وأحمد هذا الحديث بهذا اللفظ وقالا: فأنزل الله: "يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ اسْتَحْوَذُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ" .^٢

^١ سورة العنكبوت الآية (٧٤) .

^٢ سورة المجادلة الآية (١٨ ، ١٩) .

ومثال السبب الواحد ينزل فيه أكثر من آيتين ما أخرجه الحاكم والترمذى عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في المحرجة بشيء فأنزل الله:

"فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيقُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْدُوا فِي سَيِّلٍ وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كَفَرُنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الشَّوَّابِ".^١

وأخرج الحاكم أيضا عنها أنها قالت: قلت: يا رسول الله: تذكر الرجال ولا تذكر النساء فأنزلت: "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ" ، وأنزلت "أَنِّي لَا أُضِيقُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى" . وأخرج الحاكم أيضا أنها قالت: تغزو الرجال ولا تغزو النساء ، وإنما لنا نصف الميراث. فأنزل الله: "وَلَا تَتَمَنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ" ، وأنزل: "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ"^٢

^١) سورة آل عمران الآية (١٩٥) .

^٢) منهال العرفان في علوم القرآن ١ / ١٠٢ ، ١٠٣ .

المناسبات بين الآيات .

" إن المناسبات علم شريف يعرف به قدر القائل فيما يقول . والمناسبة في اللغة المقاربة ، وفلان يناسب فلاناً أي : يقرب منه ، ويشاكله ، ومنه النسبة الذي هو القريب المتصل كالأخوين ، وابن العم ، ونحوه . وإن كانا متناسبين بمعنى رابط بينهما وهو القرابة . ومنه المناسبة في العلة في باب القياس الوصف المقارب للحكم لأنه إذا حصلت مقارنته له ظن عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم ؛ ولهذا قيل: المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقتها بالقبول ، وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها .

... وقد قل اعتراف المفسرين بهذا النوع لدقته ، ومن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي . قال في تفسيره : أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط . وقال بعض الأئمة : من محسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض ؛ لثلا يكون منقطعا . وهذا النوع يهمله بعض المفسرين أو كثير منهم وفوائده غزيرة .

قال الشيخ أبو الحسن الشهرياني : أول من أظهر ببغداد علم المناسبة ولم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري ، وكان غذير العلم في الشريعة والأدب و. كان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية : لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة .

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : المناسبة علم حسن ؛ ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متعدد مرتبط أوله بأخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالأخر .

قال: ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا برباط ركيك يصان عنه حسن الحديث فضلاً عن أحاسنه . فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ، ولأسباب مختلفة وما كان كذلك لا يتأنى ربط بعضه ببعض إذ لا يحسن أن يرتبط تصرف الإله في خلقه وأحكامه بعضها ببعض مع اختلاف العلل والأسباب . كتصرف الملوك والحكام والمفتين وتصرف الإنسان نفسه بأمور متوافقة ومتخالفة ومتضادة . وليس لأحد أن يطلب ربط بعض تلك التصرفات مع بعض مع اختلافها في نفسها واختلاف أوقاتها .

قال بعض مشايخنا المحققين: قد وهم من قال: لا يطلب للأي الكريمة مناسبة ؛ لأنها على حسب الواقع المترفة . وفصل الخطاب أنها على حسب الواقع تنزيلاً وعلى حسب الحكمة ترتيباً ، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكتوب مرتبة سورة كلها ، وآياته بالتوقيف . وحافظ القرآن العظيم لو استفتى في أحكام متعددة ، أو ناظر فيها ، أو أملأها ؛ لذكر آية كل حكم على ما سئل وإذا رجع إلى التلاوة لم يتخل كما أفتى ، ولا كما نزل مفرقاً . بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة ومن المعجز بين أسلوبه ونظمه الباهر فإنه "كتابُ أَحْكَمْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ"

١

قال: والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة ، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جم . وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له . قلت : وهو مبني على أن ترتيب السور توقيفي وهذا الرابع . وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية

المناسبة لما ختم به السورة قبلها ، ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى كافتتاح سورة الأنعام بالحمد فإنه مناسب لختام سورة المائدة من فصل القضاء كما قال سبحانه:

"وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"

وكافتتاح سورة فاطر بـ {الحمد} أيضاً فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله :

"وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَا عِهْمِ مِنْ قَبْلِ" ، وكما قال تعالى:

"فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" ، وكافتتاح سورة

الحديد بالتسبيح فإنه مناسب لختام سورة الواقعة من الأمر به ، وكافتتاح البقرة بقوله

: "آلم ذلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ" إشارة إلى: "الصِّرَاطَ" نفي قوله : "اَهْدَنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ" كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم ، قيل لهم :

ذلك الصراط الذي سألكم الهداية إليه هو الكتاب .

وهذا معنى حسن يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بالفاتحة وهو يرد سؤال الرمخشري في

ذلك ، وتأمل ارتباط سورة "فُرِئِشٍ" بسورة الفيل حتى قال الأخفش: اتصالها بها

من باب قوله : "فَالْتَّقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًا وَحَزَنًا" ومن لطائف

سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتي قبلها ؛ لأن السابقة قد وصف الله فيها المنافق بأمور

أربعة : البخل ، وترك الصلاة ، والرباء فيها ، ومنع الزكاة . فذكر هنا في مقابلة

البخل : "إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ" أي الكثير وفي مقابلة ترك الصلاة "فَصَلَّ" أي دم

^١ سورة الزمر من الآية (٧٥) .

^٢ سورة سباء من الآية (٥٤) .

^٣ سورة الأنعام الآية (٤٥) .

^٤ سورة البقرة الآيات (١ ، ٢) .

^٥ سورة الفاتحة الآية (٦) .

^٦ سورة القصص من الآية (٨) .

عليها وفي مقابلة الرياء " لِرَبِّكَ " أي لرضاه لا للناس . وفي مقابلة منع الماعون " وَأَنْهَرْ " وأراد به التصدق بلحم الأضاحي فاعتبر هذه المناسبة العجيبة .

وكذلك مناسبة فاتحة سورة الإسراء بالتسبيح ، وسورة الكهف بالتحميد ؛ لأن التسبيح حيث جاء مقدم على التحميد يقال سبحان الله ، والحمد لله .

وذكر الشيخ كمال الدين الزملکاني في بعض دروسه مناسبة استفتحها بذلك ما ملخصه : إن سورة بنى إسرائيل افتتحت بحديث الإسراء ، وهو من الخوارق الدالة على صدق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنه رسول من عند الله . والمشركون كذبوا ذلك وقالوا : كيف يسير في ليلة من مكة إلى بيت المقدس وعادوا وتعنتوا وقالوا : صف لنا بيت المقدس . فرفع له حتى وصفه لهم ، والسبب في الإسراء أولاً بيت المقدس ؟ ليكون ذلك دليلاً على صحة قوله : بصعود السموات ؛ فافتتحت بالتسبيح تصديقاً لنبيه فيما ادعاه ؛ لأن تكذيبهم له تكذيب عناد فنذه نفسه قبل الإخبار بهذا الذي كذبوا .

أما الكهف فإنه لما احتبس الوحي ، وأرجف الكفار بسبب ذلك أنزلها الله رداً عليهم ، وأنه لم يقطع نعمه عن نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . بل أتم عليه بإزال الكتاب فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة . وإذا ثبت هذا بالنسبة إلى السور فما ظنك بالأيات ، وتعلق بعضها بعض بل عند التأمل يظهر أن القرآن كله كالكلمة الواحدة .

أنواع ارتباط الآي بعضها بعض .

إن ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يظهر الارتباط بينهما لتعلق الكلام بعضه بعض وعدم تمامه بالأولى فواضح و. كذلك إذا كانت الثانية للأولى على جهة التأكيد والتفسير ، أو الاعتراض والتشديد ، وهذا القسم لا كلام فيه .

وإما ألا يظهر الارتباط . بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى ، وأنها خلاف النوع المبدوء به ، فإما أن تكون معطوفة على ما قبلها بحرف من حروف العطف المشترك في الحكم أولاً ، وذلك أقسام :

القسم الأول: أن تكون معطوفة ، ولا بد أن تكون بينهما جهة جامعة على ما سبق تقسيمه كقوله تعالى : "يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا" ، قوله "وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" وفائدة العطف جعلهما كالنظيرين والشريكين .

وقد تكون العلاقة بينهما المضادة ، وهذا كمناسبة ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب والرغبة بعد الرهبة . وعادة القرآن العظيم إذا ذكر أحکاما ذكر بعدها وعدا ووعيدا ليكون ذلك باعثا على العمل بما سبق ، ثم يذكر آيات التوحيد والتنزية ليعلم عظم الأمر والنافي .

وتتأمل سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرها تجده كذلك . وقد تأتي الجملة معطوفة على ما قبلها ، وبشكل وجه الارتباط فتحتاج إلى شرح ونذكر من ذلك صورا يتحقّق بها ما هو في معناها :

فمنها قوله تعالى : "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ وَلَيْسَ الْبَرُ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبَرَ مَنِ اتَّقَى وَأَنُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا

^١ سورة سباء من الآية (٢) .

^٢ سورة البقرة من الآية (٢٤٥) .

^٣ سورة القراءة من الآية (١٨٩) .

فقد يقال أي رابط بين أحكام الأهلة وبين حكم إتیان البيوت؟ والجواب من وجوه :

أحدها: كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الحكم في تمام الأهلة ونقاصها : معلوم أن كل ما يفعله الله فيه حكمة ظاهرة ومصلحة لعباده فدعوا السؤال عنه ، وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها برا .

الثاني : أنه من باب الاستطراد لما ذكر أنها مواعيit للحج و ، كان هذا من أفعالهم في الحج ففي الحديث أن ناسا من الأنصار كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطا ، ولا دارا ، ولا فسطاطا من باب . فإن كان من أهل المدر نقب نقبا في ظهر بيته منه يدخل ، ويخرج ، أو يتخذ سلما يصعد به . وإن كان من أهل الورق خرج من خلف المخباء . فقيل لهم : ليس البر بتحرركم من دخول الباب ؟ لكن البر من اتقى ما حرم الله . وكان من حقهم السؤال عن هذا وتركهم السؤال عن الأهلة . ونظيره في الزيادة على الجواب قوله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن المتوضئ بماء البحر فقال: " هو الظهور مأوى الحل ميته"

الثالث: أنه من قبيل التمثيل لما هم عليه من تعكيسيهم في سؤالهم ، وأن مثلهم كمثل من يترك بابا ، ويدخل من ظهر البيت فقيل لهم : ليس البر ما أنتم عليه من تعكيسي الأسئلة ؟ ولكن البر من اتقى ذلك، ثم قال الله سبحانه : " وَأُتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا" أي باشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشر عليها ، ولا تعكسوا . والمراد أن يصمم القلب على أن جميع أفعال الله حكمة منه وأنه " لا يُسَأَّلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسَأَّلُونَ" فإن في السؤال اهاما .^١

^١ سورة الأنبياء الآية (٢٣) .

ومنها قوله سبحانه وتعالى : "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى" ^١ إلى أن قال : "وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ" فإنه قد يقال : أي رابط بين الإسراء و "وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ" ؟ ووجه اتصالها بما قبلها أن التقدير : أطلعناه على الغيب عيانا ، وأخبرناه بوقائع من سلف بيانا ؛ لتقوم أخباره على معجزته برهانا . أي سبحانه الذي أطلعك على بعض آياته لقصصها ذكرها ، وأخبرك بما جرى لموسى وقومه في الكرتين لتكون قصتهما آية أخرى . أو أنه أسرى بمحمد إلى ربه كما أسرى بموسى من مصر حين خرج منها خائفًا يتربض ، ثم ذكر بعده : "ذُرْيَةٌ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا" ؛ ليذكر بنو إسرائيل نعمة الله عليهم قديما ، حيث بناهم من الغرق إذ لو لم ينج أباهم من أبناء نوح لما وجدوا . وأخبرهم أن نوحًا كان عبدا شكورا ، وهم ذريته والولد سر أبيه ، فيجب أن يكونوا شاكرين كأبيهم ؛ لأنه يجب أن يسيراً سيرته فيشكروا .

وتأمل كيف أثني عليه وكيف تليق صفتة بالفاصلة ، ويتم النظم بها مع خروجها مخرج المرور عن الكلام الأول إلى ذكره ، ومدحه بشكره ، وأن يعتقدوا تعظيم تخلisce إياهم من الطوفان بما حملهم عليه ، وبناهم منه حين أهلك من عداهم . وقد عرفهم أنه إنما يؤاخذهم بذنبهم وفسادهم فيما سلط عليهم من قتلهم ثم عاد عليهم بالإحسان والإفضلات كي يتذكروا ويعرموا قدر نعمة الله عليهم وعلى نوح الذي ولدتهم وهم ذريته فلما صاروا إلى جهالتهم وتمردوا عاد عليهم التعذيب

^١ سورة الإسراء الآية (١) .

^٢ الإسراء من الآية (٢) .

^٣ سورة الإسراء الآية (٣) .

ثم ذكر تعالى في ثلاث آيات بعد ذلك : معنى هذه القصة بكلمات قليلة العدد كثيرة الفوائد لا يمكن شرحها إلا بالتفصيل الكبير ، والكلام الطويل مع ما اشتمل عليه من التدرج العجيب والموهبة العظيمة بقوله : "إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا" ، ولم ينقطع بذلك نظام الكلام إلى أن خرج إلى قوله : "عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُذْنَا" ، يعني إن عدتم إلى الطاعة عدنا إلى العفو . ثم خرج خروجا آخر إلى حكمة القرآن ؛ لأن الآية الكبرى وعلى هذا فقس الانتقال من مقام إلى مقام حتى ينقطع الكلام .

وبهذا يظهر لك اشتمال القرآن العظيم على النوع المسمى بالخلص ، وقد أنكره أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغاني ، وقال : ليس في القرآن الكريم منه شيء لما فيه من التتكلف وليس كما قال .

ومن أحسن أمثلته قوله تعالى : "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" فإن فيها خمس تخلصات ، وذلك أنه جاء بصفة النور ومتليله ، ثم تخلص منه إلى ذكر الزجاجة وصفاتها ، ثم رجع إلى ذكر النور والزيت يستمد منه ، ثم التخلص منه إلى ذكر الشجرة ، ثم تخلص من ذكرها إلى صفة الزيت ، ثم تخلص من صفة الزيت إلى صفة النور وتضاعفه ، ثم تخلص منه إلى نعم الله بالهدى على من يشاء .

ومنه قوله تعالى : "سَأَلَ سَائِلٍ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ" فإنه سبحانه ذكر أولا عذاب الكفار وأن لا دافع له من الله ، ثم تخلص إلى قوله : "تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ"

^١ سورة الإسراء من الآية (٧) .

^٢ سورة الإسراء من الآية (٨) .

^٣ سورة النور من الآية (٣٥) .

^٤ سورة المعارج الآية (١) .

^٥ سورة المعارج من الآية (٤) .

بوصف "الله ذي المعارض" ، ومنه قوله تعالى : "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأً إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَيْهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ" إلى قوله : "فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" فهذا تخلص من قصة إبراهيم وقومه إلى قوله هكذا ، وتنبي الكفار في الدار الآخرة الرجوع إلى الدنيا ؛ ليؤمنوا بالرسل وهذا تخلص عجيب .

وقوله : "قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضْرُونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذِيلَكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِيَنِ" وذلك أنه لما أراد الانتقال من أحوال أصنامهم إلى ذكر صفات الله قال : إن أولئك لي أعداء إلا الله فانتقل بطريق الاستثناء المنفصل .

وقوله تعالى : "إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَبِّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ لَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِمُونَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ" ^٤

وقوله تعالى في سورة الصافات : "أَذْلَكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الرَّقْوُم" وهذا من بديع التخلص ، فإنه سبحانه خلص من وصف المخلصين وما أعد لهم إلى وصف الظالمين وما أعد لهم .

^١ سورة المعارض الآية (٣) .

^٢ سورة الشعراء الآيات (٦٩ ، ٧٠) .

^٣ سورة الشعراء الآية (١٠٢) .

^٤ سورة النمل الآيات (٢٣ : ٢٦) .

^٥ سورة الصافات الآية (٦٢) .

ومنه أنه تعالى في سورة الأعراف ذكر الأمم الحالية ، والأنبياء الماضين من آدم عليه السلام إلى أن انتهى إلى قصة موسى عليه السلام فقال في آخرها : " وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخْذَتْهُمُ الرَّجْفَةَ " إلى " الَّذِينَ يَتَبَعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِيَّ الَّذِي يَجْدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ " ، وهو من بديع التخلص . واعلم أنه حيث قصد التخلص فلا بد من التوطئة له ، ومن بديعه قوله تعالى : " تَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ " يشير إلى قصة يوسف عليه السلام ، فوطأ بهذه الجملة إلى ذكر القصة يشير إليها بهذه النكتة من باب الوحي والرمز . وকقوله سبحانه موطئا للتخلص إلى ذكر مبتدأ خلق المسيح عليه السلام وإنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا " .^٤

ومنها قوله تعالى : " وَلِلَّهِ الْمَشْرُقُ وَالْمَغْرِبُ فَإِنَّمَا تُوَلُّوا فَشَمَّ وَجْهَ اللَّهِ " فإنه قد يقال : ما وجه اتصاله بما قبله وهو قوله : " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا " ؟^٦

قال الشيخ أبو محمد الجوني في تفسيره : سمعت أبا الحسين الدهان يقول : وجه اتصالها هو أن ذكر تخريب بيت المقدس قد سبق أي فلا يجر منكم ذلك واستقبلوها فإنَّ اللَّهَ المشرق والمغرب .

^١ سورة الأعراف من الآية (١٥٥) .

^٢ سورة الأعراف من الآية (١٥٧) .

^٣ سورة يوسف من الآية (٣) .

^٤ سورة آل عمران من الآية (٣٣) .

^٥ سورة البقرة من الآية (١١٤) .

^٦ سورة البقرة من الآية (١١٤) .

ومنها قوله : "أَفَلَا يُنْظِرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقْتُ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعْتُ" فإنه يقال : ما وجه الجمع بين الإبل ، والسماء ، والجبال ، والأرض في هذه الآية ؟ والجواب أنه جمع بينهما على مجرى الإبل ، والعادة بالنسبة إلى أهل الوبر . فإن كل انتفاعهم في معيشتهم من الإبل فتكون عنايتهم مصروفة إليها ، ولا يحصل إلا بأن ترعى وتشرب ؛ وذلك بنزل المطر وهو سبب تقلب وجوههم في السماء . ثم لا بد لهم من مأوى يؤويهم وحصن يتحصنون به ، ولا شيء في ذلك كالجبال . ثم لا غنى لهم لتعذر طول مكثهم في منزل عن التنقل من أرض إلى سواها ، فإذا نظر البدوي في خياله وجد صورة هذه الأشياء حاضرة فيه على الترتيب المذكور . ومنها قوله تعالى : "أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ" فيقال : أي ارتباط بينهما ؟ وجوابه أن المبتدأ وهو {من} خبره ممحوف أي أ فمن هو قائم على كل نفس ترك عبادته ، أو معادل المهمزة تقديره أ فمن هو قائم على كل نفس كمن ليس بقائم ، ووجه العطف على التقديرين واضح . أما الأول فالمعنى أترك عبادة من هو قائم على كل نفس ، ولم يكف الترك ؛ حتى جعلوا له شركاء وأما على الثاني فالم公网 إذا انتهت المساواة بينهما فكيف يجعلون لغير المساوي حكم المساوي ؟ ومنها قوله تعالى : "أَلَمْ تَرِ إِلَى الَّذِي حَاجَ إِبْرَاهِيمَ" إلى قوله : "وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الطَّالِمِينَ أَوْ كَالَّذِي مَرَ عَلَى قَرْيَةٍ" عطف قصة على قصة مع

^١ سورة الغاشية الآياتان (١٧ ، ١٨) .

^٢ سورة الرعد من الآية (٣٣) .

^٣ سورة البقرة من الآية (٢٥٨) .

^٤ سورة البقرة من الآيتين (٢٥٩ ، ٢٥٨) .

أن شرط العطف المشاكلة فلا يحسن في نظير الآية : " أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ " ، " أَوْ كَالَّذِي " ١

ووجه ما بينهما من المشابهة أن " أَلَمْ تَرَ " بمنزلة هل رأيت كالذى حاج إبراهيم . وإنما كانت بمنزلتها ؛ لأن " أَلَمْ تَرَ " مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي ؛ ولذلك يحاب بيلى ، والاستفهام يعطي النفي إذ حقيقة المستفهم عنه غير ثابتة عند المستفهم . ومن ثم جاء حرف الاستفهام مكان حرف النفي ونفي النفي إيجاب . فصار بهثابة رأيت غير أنه مقصود به الاستفهام ، ولم يمكن أن يؤتى بحرفة لوجوده في اللفظ ؛ فلذلك أعطى معنى هل رأيت ؟ فإن قلت : من أين جاءت إلى ورأيت يتعدى بنفسه؟ أحيب لتضمنه معنى تنظر .

القسم الثاني: ألا تكون معطوفة فلا بد من دعامة تؤذن باتصال الكلام ، وهى قرائن معنوية مؤذنة بالربط . والأول منج لفظي ، وهذا منج معنوي تنزل الثانية من الأولى منزلة جزئها الثاني ، وله أسباب أحدها: التناظير . فإن إلحاق النظير بالنظير من دأب العقلاء ، ومن أمثلته قوله تعالى : " كَمَا أَخْرَجْتَ رَبِّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ " عقب قوله : " أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ " فإن الله سبحانه أمر رسوله أن يمضي لأمره في الغائم على كره من أصحابه كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون . وذلك أئمهم اختلفوا في القتال يوم بدر في الأنفال ، وحاجوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وجادلوه فكره كثير منهم ما كان من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في النفل ؛ فأنزل الله هذه الآية ، وأنفذ أمره بها ، وأمرهم أن يتقووا الله ويطيعوه ن ولا يعترضوا عليه فيما

^١ سورة الأنفال من الآية (٥) .

^٢ سورة الأنفال الآية (٤) .

يفعله من شيء ما . بعد أن كانوا مؤمنين ووصف المؤمنين ، ثم قال : "كَمَا أَخْرَجَكُ
رِبُّكُ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ" يريد أن كراحتهم لما
 فعلته من الغنائم ك Krahtem للخروج معك .

وقيل : معناه أولئك هم المؤمنون حقا كما أخرجتك ربك من بيتك بالحق . كقوله
 تعالى : "فَوَرَبُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌ مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تَنْطَقُونَ" .

وقيل : الكاف صفة لفعل مضمر وتأويله : افعل في الأنفال كما فعلت في الخروج
 إلى بدر ، وإن كره القوم ذلك . ونظيره قوله تعالى : "كَمَا أَرْسَلْنَا فِيْكُمْ رَسُولًا
 مِنْكُمْ" معناه : كما أنعمنا عليكم بإرسال رسول من أنفسكم ، فكذلك أتم نعمتي
 عليكم فشبه كراحتهم ما جرى من أمر الأنفال ، وقسمتها بالكرابة في مخرجه من
 بيته ، وكل ما لا يتم الكلام إلا به من صفة وصلة فهو من نفس الكلام .

وأما قوله تعالى : "كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ" بعد قوله : "وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ
 الْمُبِينُ" فإن فيه مخدوفا ، كأنه قال أنا النذير المبين عقوبة أو عذابا مثل ما أنزلنا
 على المقتسمين .

وأما قوله تعالى : "لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُعْجَلَ بِهِ" وقد أكتنفعه من جانبيه قوله :
 "بِلِ الْإِنْسَانَ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَادِيرَةً" ، قوله : "كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ

^١ سورة الذاريات الآية (٢٣) .

^٢ سورة البقرة من الآية (١٥١) .

^٣ سورة الحجر الآية (٩٠) .

^٤ سورة الحجر الآية (٨٩) .

^٥ سورة القيمة الآية (١٦) .

^٦ سورة القيمة الآيات (١٤ ، ١٥) .

الْعَاجِلَةَ وَتَدَرُّونَ الْآخِرَةَ" فهذا من باب قولك للرجل وأنت تحدثه بحديث فيتقل عنك ، ويقبل على شيء آخر: أقبل على واسع ما أقول وافهم عني . ونحو هذا الكلام ، ثم تصل حديثك فلا يكون بذلك خارجا عن الكلام الأول قاطعا له ، وإنما يكون به مشوقا للكلام . وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وكان إذا نزل عليه الوحي وسمع القرآن حرك لسانه بذكر الله . فقيل له: تدبر ما يوحى إليك ، ولا تتلقفه بلسانك ، فإنما ينجمعه لك ونحفظه عليك .

ونظيره قوله في سورة المائدة : "الْيَوْمَ يَسَّرَ اللَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ" إلى قوله : "الإِسْلَامُ دِينِنَا" فإن الكلام بعد ذلك متصل بقوله أولا: "ذَلِكُمْ فِسْقٌ" ووسط هذه الجملة بين الكلمين ترغيبا في قبول هذه الأحكام ، والعمل بها ، والتحث على مخالفة الكفار ، وموت كلمتهم ، وإكمال الدين . ويدل على اتصال فمن اضطر بقوله : "ذَلِكُمْ فِسْقٌ" آية الأنعام : "فَلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْقُوفًا أَوْ لَحْمًا خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ" الثاني: المضادة . ومن أمثلته قوله تعالى في سورة البقرة : "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ" فإنه أول السورة كان حديثا عن القرآن الكريم ، وأن من شأنه كيت وكيت ، وأنه لا يهدي القوم الذين من صفاتهم كيت وكيت ، فرجع إلى الحديث عن المؤمنين فلما أكمله عقب بما هو حديث عن

^١ سورة القيمة الآياتان (٢٠ ، ٢١) .

^٢ سورة المائدة من الآية (٣) .

^٣ سورة المائدة من الآية (٣) .

^٤ سورة المائدة من الآية (٣) .

^٥ سورة الأنعام من الآية (١٤٥) .

^٦ سورة البقرة من الآية (٦) .

الكفار . فيبينهما جامع وهمي بالتضاد من هذا الوجه ، وحكمته التسويق والثبوت على الأول كما قيل:

وبضدها تتبين الأشياء . فإن قيل: هذا جامع بعيد ؛ لأن كونه حديثا عن المؤمنين بالعرض لا بالذات ، والمقصود بالذات الذي هو مساق الكلام إنما هو الحديث عن الكتاب ؛ لأنه مفتتح القول . قلنا : لا يشترط في الجامع ذلك بل يكفي التعلق على أي وجه كان ، ويكتفى في وجه الربط ما ذكرنا ؛ لأن القصد تأكيد أمر القرآن والعمل به ، والحمد على الإيمان به ؛ ولهذا لما فرغ من ذلك قال : "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَرَنَا عَلَى عَبْدِنَا" فرجع إلى الأول .^١

القسم الثالث: الاستطراد . قوله تعالى : "يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ حَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ".^٢

قال الزمخشري: هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر بدو السوئات وخصف الورق عليها ؛ إظهارا للمنة فيما خلق الله من اللباس . وما في العري وكشف العورة من المهانة ، والفضيحة ، وإشعارا بأن الستر بباب عظيم من أبواب التقوى . وجعل القاضي أبو بكر في كتاب إعجاز القرآن من الاستطراد قوله تعالى : "أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَقَّدُ ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ وَلَلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكِبِرُونَ"^٣

^١) سورة البقرة من الآية (٢٣) .

^٢) سورة الأعراف الآية (٢٦) .

^٣) سورة النحل الآيات (٤٨ ، ٤٩) .

وقال: كأن المراد أن يجري بالقول الأول إلى الإخبار عن أن كل شيء يسجد لله عز وجل ، وإن كان ابتداء الكلام في أمر خاص . وفيه نظر .

ومنه الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطا للسامع . كقوله تعالى في سورة ص بعد ذكر الأنبياء : " هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ " فإن هذا القرآن نوع من الذكر لما انتهى ذكر الأنبياء ، وهو نوع من التنزيل أراد أن يذكر نوعا آخر وهو ذكر الجنة وأهلها فقال : " هَذَا ذِكْرٌ " فأكيد تلك الإخباريات باسم الإشارة تقول: أشير عليك بكتذا ، ثم تقول بعده : هذا الذي عندي والأمر إليك . وقال : " وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ " كما يقول المصنف : هذا باب يشرع في باب آخر ولذلك لما فرغ من ذكر أهل الجنة قال : " هَذَا وَإِنَّ لِلظَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ "

فصل في اتصال اللفظ والمعنى على خلاف .

وقد يكون اللفظ متصلا بالآخر والمعنى على خلافه كقوله تعالى : " وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَانَ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ " فقوله : " كَانَ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ " منظوم بقوله : " قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ " ؛ لأنه موضع الشماتة . وقوله : " كَانَمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ " فإنه متصل بقوله :

^١ سورة ص الآية (٤٩) .

^٢ سورة ص الآية (٥٥) . البرهان في علوم القرآن

^٣ سورة النساء من الآية (٧٣) . وتمام الآية " وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَانَ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْسَيْ كُنْتُ مَعْهُمْ فَأَفْوَزُ فَوْرًا عَظِيمًا " .

^٤ سورة النساء من الآية (٧٢) . وتمام الآية " وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ يَطِئَنَ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةً قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ أَنْمَ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا " .

^٥ سورة الانفال من الآية (٦) .

"وَإِنْ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارُهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ" .^١

وقوله: "وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلُهُمْ" جواب الشرط قوله تعالى: "تَوَلُّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ" ، قوله: "قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ" داخلي في الشرط . قوله: "وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ" إلى قوله: "إِلَّا قَلِيلًا" فقوله : "إِلَّا قَلِيلًا" متصل بقوله: "لِعِلْمِهِ الَّذِينَ يَسْتَبِطُونَهُ مِنْهُمْ" ، ومثل قوله: "وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ" على تأويل: ولو لا فضل الله عليكم ورحمته إلا قليلا من لم يدخله في رحمته ، واتبعوا الشيطان لاتبعتم الشيطان . وما يحتمل الاتصال ، والانقطاع قوله تعالى: "فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ" يحتمل أن يكون متصلة بقوله: "فِيهَا مِصْبَاحٌ" أي المصباح في بيوت ؟ ويكون تاما على قوله: "وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ"^٢

^١ سورة الأنفال من الآيات (٦ ، ٥) .

^٢ سورة التوبة من الآية (٩٢) .

^٣ سورة التوبه من الآية (٩٢) .

^٤ سورة التوبه من الآية (٩٢) .

^٥ سورة النساء من الآية (٨٣) .

^٦ سورة النساء من الآية (٨٣) .

^٧ سورة النساء من الآية (٨٣) . وتمام الآية وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْرَدُوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَئْمَرِ مِنْهُمْ لِعِلْمِهِ الَّذِينَ يَسْتَبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً لَا تَبِعُنَّ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا

^٨ سورة النور من الآية (٣٦) . وتمام الآية " فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَيِّدُ لَهُ فِيهَا مِصْبَاحٌ بِالْغُدُوِّ وَالآصَابِ " .

^٩ سورة النور من الآية (٣٥) . وتمام الآية " اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَعْلُوْنُ نُورُهُ كِبِيشَكَاهٌ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمُبَصِّرُ كَأَنَّهَا كَوَافِرُ ذُرَيْيٍ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مَبَارِكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْشَهَا يُضَيِّعُهُ وَلَوْلَمْ تَمْسِسْهُ نَازٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْفَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ شَيْءاً عَلِيمًا" .

و(يسبح له فيها رجال) صفة للبيوت ويحتمل أن يكون منقطعًا خبراً لقوله : "رَجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ" وما يتعين أن يكون منقطعًا قوله: "وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ" مستأنف ؛ لأنَّه لو جعل متصلًا بيعزِّب لاختلاع المعنى . إذ يصير على حد قوله : ما يعزِّب عن ذهني إلا في كتاب أي استدراكه ، وقوله: "فِيهِ هُدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ" منهم من قضى باستئنافه على أنه مبتدأ وخبر ، ومنهم من قضى يجعل {فيه} خبر {لا} و{هُدَى} نصب على الحال في تقدير هاديا ، ولا يخفى انقطاع: "الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ" عن قوله: "أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ" وكذا: "فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ" عن قوله سبحانه: "إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلَمُونَ" وكذلك قوله: "فَاصْبِحْ مِنَ النَّادِيمِينَ" عن قوله: "مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ" .

٩

^١ سورة النور من الآية (٣٧) . وتمام الآية "رَجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الرِّزْكَةِ يَخْافُونَ يَوْمًا تَسْقَبُ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ" .

^٢ سورة يونس من الآية (٦١) . وتمام الآية : " وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَشَأُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شَهِودًا إِذْ تُفَضِّلُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ" .

^٣ سورة البقرة من الآية (٢) . وتمام الآية : "ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَبٌ لِّفِيهِ هُدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ" .

^٤ سورة غافر من الآية (٧) . وتمام الآية "الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَيَّرُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَعْفِفُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعَلِمَنَا فَاعْفُنَا لِلَّذِينَ تَابُوا وَأَسْبَلُوكَ وَقِهْمَ عَذَابَ الْجَحِيمِ" .

^٥ سورة غافر من الآية (٦) . وتمام الآية : " وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ" .

^٦ سورة يس من الآية (٧٦) .

^٧ سورة يس من الآية (٧٦) وهي تمام ما قبلها .

^٨ سورة المائدَة من الآية (٣١) . وتمام الآية : "فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيرِهِ كَيْفَ يُوَارِي سُوْدَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَلَيْتَنَا أَعْجِزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأَوَارِي سُوْدَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِيمِينَ" .

^٩ سورة المائدَة من الآية (٣٢) . منْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَاتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَانَتْ قَاتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَخْتَاهَا فَكَانَتْ أَخْيَا النَّاسِ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمْسُرُوفُونَ" . انظر الفصل كاملاً في البرهان في علوم القرآن ج ١ / ٣٥ : ٥٢ .

الخاتمة .

من حكمة الله سبحانه وتعالى أن جعل لكل شيء بداية ونهاية ، فكل مخلوق أو مجعل أو مصنوع له بداية ونهاية . أما الحق سبحانه وتعالى فمنزه عن البدايات ، ولا تصل إليه النهايات . فهو سبحانه وتعالى أول بلا بداية ، وأخر بلا نهاية . قديم أزلٍ موجود بنفسه غير مخلوق ، ولا مجعل ؛ بل هو الخالق ، وهو الجاَعِلُ ، وهو رب الأَكوان . وصل بنا المطاف إلى حد النهاية لنختتم جولتنا حول بعض الموضوعات من علوم القرآن ؛ علينا نكون وفقنا للقصد ، وسدد الله ربنا لما بغيانا فإذا لمس التوفيق فاعلموا أنه من فضل الله ، ومن فتحه ، وإن وجد الخطأ والذلل فالتمسوا الأعذار ، واعلموا أن كل ابن آدم خطاء وما الذلل والخطأ إلا من نفسي والشيطان .

انتهى حديثنا عن موضوعات مهمة من علوم القرآن الكريم وجاء حديثنا متتسقا على النظم الآتي : الفصل الأول : ما يخص القرآن الكريم من تعريفه ، وجمعه ، وترتيبه ، وسوره ورسمه وبه خمسة مباحث : المبحث الأول : تعريف القرآن الكريم في اللغة والاصطلاح ، والفرق بينه وبين الحديث القديسي .
المبحث الثاني : جمع القرآن الكريم ، وترتيبه : في عهد النبي ، وأبي بكر ، وعثمان

المبحث الثالث : الشبه التي أثيرت حول جمع القرآن الكريم والرد عليها.

المبحث الرابع : ترتيب الآيات والسور وسور القرآن وآياته و الرسم العثماني

المبحث الخامس : الفواصل القرآنية .

الفصل الثاني : الوحي ونزول القرآن الكريم .

وبه ثلاثة مباحث : المبحث الأول : الوحي .

المبحث الثاني : المكي والمدني .

المبحث الثالث : نزول القرآن الكريم .

الفصل الثالث : أسباب النزول وما يتعلّق بها من أحکام .

وبه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : معنى أسباب النزول وفوائدها وما يعتمد عليه في معرفتها .

المبحث الثاني : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

تعدد الروايات في سبب النزول .

المبحث الثالث : تعدد النزول مع وحدة السبب .

المناسبات بين الآيات .

جمعت في هذه المواضيع ما يتناسب وطالب الدراسات الإسلامية ، وحاوّلت

تبسيط قدر المستطاع ألا وإن العلم بحر عميق ما زلنا نهروّل على ساحله ،

ندخل في أوائله مرة ، ونخرج الأخرى خوفاً من الغرق في مياهه العميقه ،

وأمواجه المتلاحقة .

أتمنى لكم التوفيق والسداد ، وأن يجعلنا الله من عباده المتقيين الطائعين ،

ومن ورثة جنة النعيم . آمين

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

- ١ - إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة لأحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري ، دار الوطن - الرياض ، الطبعة : الأولى - ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .
- ٢ - الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي ، مطبعة حجازي بالقاهرة .
- ٣ - أسباب النزول تأليف أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي التيسابوري ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع .
- ٤ - إعجاز القرآن لأبي محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الناشر : دار المعارف - القاهرة تحقيق : السيد أحمد صقر .
- ٥ - البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة : الأولى ، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م ، الناشر : دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه .
- ٦ - سنن أبي داود ، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ، دار الكتاب العربي - بيروت .

- ٧ - سنن الترمذى (الجامع المختصر) للعلامة محمد بن عيسى بن سورة الترمذى ، حكم على أحاديث الإمام الألبانى ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى .
- ٨ - سنن النسائي (المعجتبى من السنن) ، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي ، تحقيق : عبدالفتاح أبو غدة ، الناشر : مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
- ٩ - شعب الإيمان ، أبو بكر أحمد بن الحسين البهقى ، دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠ ، تحقيق : محمد السعيد بسيونى زغلول .
- ١٠ - صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه) ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري ، أبو عبد الله ، تحقيق : محمد زهير بن ناصر الناصر ، الناشر : دار طوق النجا ، الطبعة : الأولى ١٤٢٢ هـ .
- ١١ - صحيح مسلم ، أبو الحسين مسلم بن الحاج القشيري النيسابوري ، عني به أبو صهيب الكرمي ، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ ، ١٩٩٨ م .
- ١٢ - قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث ، العلامة جمال الدين القاسمي الدمشقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان .
- ١٣ - لسان العرب ، ابن منظور ، طبعة دار المعارف .

- ٤ - المدونة الكبرى ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبهي المدني ، المحقق : زكريا عميراتالناشر : دار الكتب العلمية بيروت . لبنان .
- ٥ - مجلة الأزهر المجلد السابع .
- ٦ - مجمع الروايد ومنيع الفوائد ، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ، الناشر : دار الفكر ، بيروت ١٤١٢ هـ .
- ٧ - المحكم والمحيط الأعظم ، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، الناشر دار الكتب العلمية ، سنة النشر ٢٠٠٠ م ، بيروت .
- ٨ - المستدر على الصحيحين ، أبو عبد الله الحكم النيسابوري ، دار المعرفة - بيروت لبنان .
- ٩ - مسند الإمام أحمد بن حنبل ، أحمد بن حنبل ، المحقق : شعيب الأرنؤوط وآخرون ، الناشر : مؤسسة الرسالة ، الطبعة : الثانية ١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م .
- ١٠ - المعجم الكبير ، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني ، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي ، الناشر : مكتبة العلوم والحكم - الموصل ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م .
- ١١ - مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني ، تحقيق : فواز أحمد زمرلي ، دار الكتاب العربي .
- تم بحمد الله وتوفيقه ، ، ،